الفصل الرابع

أثر الحضارة العربية الاسلامية فى الحضارة الأوربية

أن موضوع الحضارة العربية الاسلامية وأثرها فى الحضارة الأوربية لايتسع له هذا الفصل ، ذلك لأن الحضارة العربية الاسلامية وقد تركت بصماتها واضحة وقوية فى كل فروع العلوم الإنسانية التى عرفتها أوربا ومن هنا فإن كل فرع من هذه الفروع التى أثر العرب فيها يحتاج إلى مؤلف خاص وعلى هذا، فموضوع الحضارة العربية الاسلامية موضوع متشعب الجوانب عميق الجذور ، لذا فإنى سوف أحاول إلقاء الضوء على بعض من هذه الجوانب ونأخذ من كل جانب قطرة نلقى بها أمام القارىء كل يتعرف على جزء من أثر الاسلام فى الحضارة العالمية التى ينعم بها العالم المعاصر اليوم .

والحضارة العربية الاسلامية هى أولا حضارة عربية لأن الذين قاموا ونشروها خارج الجزيرة العربية هم العرب أنفسهم وهم العمود الفقرى فى هذه الحضارة ، ثم بعد ذلك شارك فيها المسلمون الذين فتحت أقطارهم فى شتى أقطار المعمورة التى انطوت تحت لواء الاسلام وكذلك فهى إسلامية لأنها استمدت عناصرها الأساسية من كتاب الله وسنة رسوله الكريم وهما حجرا الزاوية فى تلك الحضارة .

إن فضل العرب والثقافة العربية الاسلامية على الحضارة الأوربية لا ينكره أى منصف أو دارس للتاريخ الإسلامى والعالمى ، ولكن الكثير من الغربيين وأشياعهم من المستشرقين والمبشرين ، حادوا عن نزاهة العلم وطمسوا الحقيقة الواقعة وهى أن العرب والمسلمون هم أصحاب الفضل الأول فيما تنعم به أوربا من البحث العلمى اليوم .

وقد يبدو للبعض فى هذه الأيام وخصوصا الأوربيين أن الفضل فى قيام النهضة العلمية وتقدم العلوم التى ينعم بها عالمنا المعاصر ، ترجع إلى أوربا وإلى

العلماء الأوربيين وحدهم ولكن الواقع غير ذلك ، فان النهضة العلمية الأوربية التى بدأت تباشيرها منذ القرن السادس عشر الميلادى أو قبله بقليل ثم سارت بخطى واسعة وسريعة منذ القرن الثامن عشر ، ما كان لها أن تقوم وتزدهر فى الغرب لو لم تستند على أساس متين من التراث العلمى الذى نقله المسلمون إلى أوربا فى أثناء عصورهم الزاهرة فى القرون الوسطى وفى وقت كان العالم يرسف فى أغلال الجهل والتأخر والخرافة باستثناء الشرق الاسلامى الذى استنار بظهور الاسلام ونبوغ العرب والمسلمون مكان الطليعة فى الزحف الانسانى نحو الحضارة والتى حمل لواءها عباقرة المسلمين أمثال جابر بن حيان ، الخوارزمى ، البيرونى ، ابن سيناء أبو بكر الرازى، وابن خلدون وغيرهم من علماء المسلمين .

دور العرب فى الحضارة الاسلامية :

لقد انكب العرب والمسلمون فى العصور الوسطى على تحصيل العلم والتأليف فيه فبدأوا أولا بترجمة المؤلفات اليونانية والسريانية والقبطية والفارسية والهندية وغيرها ، ثم عدلوها وهذبوها ورتبوا علومها وأضافوا إليها ما حصلوا عليه بتجاربهم وطبعوها بالطابع العربى ونقلوا تلك العلوم إلى أوربا التى كانت تتخبط فى ظلمات العصور الوسطى ثم نفضت أوربا عن نفسها تراب القبور وقامت تتلمس ما غرسه العرب والمسلمون والتى أصبحت علوما عربية إسلامية تعربت حين فرضت عناصرها فى أذهان العرب ، ولقد انتشر علماء المسلمون فى أطراف العالم المعمور وتسلموا مشعل المعرفة وأعطوه لأبناء العالم الحديث حيث أتموا الدور .

ونقول أنه ما أن ظهر الاسلام حتى كانت مبادىء القرآن الكريم هى الرسالة الأولى التى حملها العرب إلى غيرهم من الشعوب التى انطوت تحت لواء الاسلام والتى نهضوا بسببها ومن هنا فان الاسلام بصورة عامة جعل للعرب الذين نزل القرآن بلغتهم وظيفة عالمية وجعل للعرب بلى لسائر المسلمين مهمة دولية ومكانة خاصة. بين الأمم والشعوب وهى مكان الصدارة والقيادة وما علينا نحن المسلمين إلا أن نتمسك بهذا الكنز الإلهى العظيم ، القرآن الكريم وأن نعتز به ونرد عنه كيد الطاعنين وزيف الزائفين ، أعداء الاسلام من الصليبيين والمستعمرين .

واجب المسلمين :

لقد كانت الشعوب الإسلامية الناطقة باللغة العربية فيما بين منتصف القرن الثامن وأوائل القرن الثالث عشر هم حملة شعلة الثقافة والحضارة والمدنية فى ربوع العالم أجمع بل أنهم فوق هذا كانوا هم الذين كشفوا ونقبوا عن الفلسفة والعلوم القديمة وأضافوا إليها فكرهم وثقافتهم ولقد أثرت الحضارة الإسلامية فى العالم الأوربى بعلومها وفنونها وتراثها الزاخر ولقد كانت الأندلس أكثر تأثيرا من بلاد العالم الإسلامى الشرقى وذلك لقربها من الممالك الأوربية التى أخذ طلابها يفيدون إليها للتزود بالعلوم الإسلامية .

واليوم لقد آن الأوان للقضاء على ماتركه الاستعمار من مسخ ثقافى وافتراء على الثقافة الإسلامية العربية الأصلية وأن نعيد هذه الثقافة العربية الإسلامية قوية كما كانت وأن تجعل لها السيادة على الثقافات الأخرى وأن نلقن الطلاب الناشئة فضل آبائهم وأجدادهم على العلم والحضارة حتى يشبوا وهم معتزون بثقافتهم وحضارتهم الإسلامية .

وقد قال معلم البشرية ومنقذ الإنسانية محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم « الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها » فهو أحق بها فهل تعود للثقافة الإسلامية العربية مكانتها ، نعم فالمسلمون والعرب مدعون اليوم لحمل رسالتهم من جديد وتأدية الأمانة التى يحملونها إلى هذا العالم المادى الحائر بهدايته إلى اعتناق الدين الإسلامى الحنيف ومن هنا يتبين لنا فضل الإسلام وحضارته الزاهرة فى حياة العرب والعالم أجمع فى الماضى والحاضر والمستقبل ولو عرف الغرب مافى الإسلام من المساواة بين خلق الله جميعا ولا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى لانتهوا عما يرتكبون من جرائم قتل زعماء المسلمين من الملونين ولانتبهوا عما يفعلون ، وأحسوا بقيمة الإنسانية والأخوة والبشرية ولو تفهم الناس تعاليم وشرائع الإسلام لتم انطواء العالم كله تحت راية لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

الغرب يشهد بفضل حضارة الاسلام :

ولقد قال « جوستاف لوبون » فى كتابه حضارة العرب أن فلاسفة العرب

والمسلمين هم أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين ، وقال « كارفسيكى » فى كتابه «الأبعاد الجديدة للاسلام» أن الخدمات التى أداها العرب للعلوم لم تكن مقدرة حق قدرها من المؤرخين وأن الأبحاث الحديثة قد دلت على أن علماء المسلمين قد نشروا العلم بينما كانت أوربا فى ظلمات القرون الوسطى، وقالت زيغرد هونكة فى كتابها «شمس العرب تسطع على الغرب» أن أوربا تدين للعرب وللحضارة العربية ، وأن الدين الذى فى عنق أوربا وسائر القارات للعرب كبير جداً وأن هذه الطفرة العلمية التى نهض بها أبناء الصحراء من أعجب النهضات العلمية الحقيقية فى تاريخ العقل البشرى وأنه كيف أنهت الحضارة الإسلامية وعلوم العرب القرون الوسطى إلى غير رجعة وكيف كان للحضارة والثقافة الاسلامية والعربية الفضل فى بداية النهضة الأوربية ولم يكن فضل الاسلام على أوربا من ناحية العلم فقط بل كان له الفضل فى نهضتها الحديثة .

واعترف بذلك « بريفوت » فى كتابه تكوين الإنسانية ، لقد كانت أوربا فى أشد أعماق الجهل والفساد ظالة بينما العالم العربى فى بغداد والقاهرة ودمشق وقرطبة وطيطلة مراكز للحضارة الإسلامية والنشاط العقلى ومن ثم ظهرت الحياة الجديدة التى نمت فى شكل ارتقاء انسانى جديد

لذا فإنه يجب على مفكرى الاسلام أن يعملوا على اعادة الثقة بالحضارة الاسلامية وإعادة عصرها الزاهر وكذلك فان أقلام أعلام الاسلام مدعوة لهذه القضية الإسلامية لأن أبناء أوربا والأمريكتين متشوقون لمعرفة ذلك الدين القيم وتلك الحضارة الاسلامية الزاهرة وأن يقفوا على حقيقة الدين الإسلامى ، وليعلم كل عاقل مفكر أن الإسلام دين حضارة ، ولقد أضفى على البلاد التى شملها لونا مشتركا من الفكر الدينى والعلاقات الإنسانية ، كما أن المسلمين أخذوا من الحضارات السابقة وتفاعلت الحضارة الإسلامية مع الحضارات العالمية الأخرى.

ويقول « كوبلر يونج » أن كل الشواهد تؤكد أن العالم الغربى مدين بوجوده إلى الثقافة العربية والإسلامية كما وأن المنهج العلمى الحديث القائم على البحث والملاحظة والتجربة والذى أخذ به علماء أوربا إنما كان نتاج اتصال العلماء

الأوربيين بالعالم الاسلامى الذى أمدهم بكثير من المعارف الإنسانية ، ويقول الكاتب الفرنسى «ريفيه ميليه» فى كتاب «الاسلام والحضارة الحديثة» ، لقد كان الإسلام هو العنصر المؤثر والعالم الأوربى هو العنصر المتأثر ، ومن ناحية العلوم فإن أوربا لبثت ثلاثمائة عام تقتبس من الإسلام ، ويقول «أميل در منجهم» فى كتابه «القيم الخالدة فى الاسلام» ، أن قيمة الأمة الإسلامية ليست فقط فى أثرها التاريخى وهو تغير نظم الحكم على ضفاف البحر الأبيض المتوسط ، بل فى أنها لا تزال إلى اليوم حية قوية ، بل لقد كتب لها الخلود والبقاء أبد الدهر .

وذلك لأن حضارة الإسلام تقوم على رسالة سماوية نظامها الاجتماعى يقوم على أسس متماسكة ونظامها الاقتصادى يعتبر رأس المال وسيلة لا غاية ويحترم الملكية الفردية غير المستغلة وثقافتها تستخدم العقل فى كسب المعرفة ولا شك فى أن لدى المسلمين أكبر ذخيرة من القيم الأخلاقية والاجتماعية والسياسية لقد انتقل العلم قديما من بلادنا الاسلامية والعربية إلى العالم الغربى فنهض به وسار على هدى نوره حتى وصل إلى مدى بعيد فى مجال البحث والاختراع وأن ملوك أوربا وحكامها كانوا حريصين بعد أن علموا ما عليه الإسلام والعرب ، فتوالت على جامعات الأندلس البعثات الأوربية لتلقى العلم والفنون والصناعات حتى أن ملوك انجلترا أرسلوا البعثات لدراسة نظام الدولة والحكم وآداب السلوك وكل مايؤدى إلى رقى الدولة والسير بها فى مضمار الحضارة والتقدم .

وكتب جورج الثانى ملك انجلترا إلى هشام الثالث الخليفة الأموى بالأندلس يقول: «لقد سمعنا عن الرقى العظيم الذى تتمتع به معاهد العلم والصناعات فى بلادكم العامرة ، فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج هذه الفضائل لتكون بداية حسنة فى اقتناء أثركم لنشر أنوار العلم فى بلادنا التى يسودها الجهل من أربعة أركان» ولقد أرسل الملك وفداً برياسة وزيره الأول إلى الأندلس ، وكان ملك بلغاريا قد أرسل وفداً إلى الأندلس فى عهد هشام الأول لدراسة نظم الحكم ومنهاج التعليم وأساليب الإدارة وعند عودة البعثة أمر الخليفة بأن يرافقها «مستشارون» وخبراء من من الأندلس يساعدوا الملك فى كل مايريد ، ثم أخذ ملوك أوربا ينسجون على منوال الملك البلغارى .

الغزو الفكرى الغربى :

والحقيقة التى لا مراء فيها أن العالم العربى والإسلامى يواجه اليوم غزوا حضاريا غربياً ، فاذا يكون موقفنا نحن الآن من هذه الحضارات الأوربية والأمريكية أنه يجب أن تواجه هذه الحضارة المادية لأن حضارة الإسلام والعرب صالحة كل زمان ومكان ولأن تكون أساساً حضارياً لحضارة زاهرة تفوق حضارتهم الزائفة المادية ، كما كانت من قبل ونحن ندعوا كل مسلم فى شتى بقاع الأرض المعمورة أن يتمسك بمعالم حضارته القوية العريقة الراسخة الدعائم والوطيدة البنيان ، وأنه لامانع أبداً إذا رأى المسلمون أنهم فى حاجة إلى بعض ألوان تلك الحضارات الغربية من أن يقتبسوا منها ما يتفق مع تعاليم دينهم الإسلامى الحنيف وما يتلائم مع ظروف تقاليد مجتمعنا العربى الإسلامى الأصيل لقد أصبحت أوربا المصنع العلمى الحديث ويشاركها فى ذلك أمريكا واليابان ، فغزت منتجاتها بلادنا العربية الإسلامية فى آسيا وأفريقيا ، بعد أن تخلفنا عن السير عن الركب الحضارى ، ولم يكن هذا التخلف منا عن عجز علمى أو تبلد فكرى بل أن العالم يعترف حتى الآن بفضل الإسلام والمسلمين على الجميع ولكن الاستعمار حال بيننا وبين الأخذ بالتقدم والتطور العلمى والبحث هذا يظهر لكل قارى أن حضارتنا العربية الإسلامية نابعة من مصدر تقى أصيل ، مصدر إلهى هو القرآن الكريم الذى هو المنبع الصافى الذى نهلت منه حضارة الإسلام والعرب باعتباره كتاب دين ودنيا ودستور حياة ، ولقد اعترف بذلك أحد كتاب الغرب « جاستون كارمن » فيقول أن القرآن الكريم هو منبع الدين العقلى ودستوره الكامل فقد احتوى على أسس تستند إليها حضارة العالم ، وفى إمكاننا أن نقول أن هذه الحضارة الإسلامية نشأت من امتزاج الأسس التى نشرها الإسلام وهذه هى حقيقة أصل الحضارة الإسلامية والعربية .

وأنه كلما تعمق الإنسان فى دراسة النصوص الإسلامية والعربية التى ظهرت فيها مساهمة المسلمين فى إزدهار الثقافة ونشرها والعمل على تقدم البشرية ، إزددنا علماً بما أداه المسلمون فى ميدان العلم والمعرفة وأن الحضارة الإسلامية تقوم على

مبادىء خالدة لم يصل إليها العقل البشرى من قبل ، ولم تستطع الهيئات الدولية فيما بعد أن تحقق شيئاً منها فى خدمة الإنسانية .

أن الإسلام يحث على الحضارة وطلب العلم والمعرفة بل انه جعل من العلم أساساً لكل سلوك قويم حتى فى الانتفاع بالقرآن الكريم لأنه لم ينزل للحفظ فحسب بل جاءت آياته فى مواقف دنيوية لتهدى الناس إلى الصراط المستقيم ومن هنا فإنه يجب أن نقاوم الغزو الفكرى المبنى على أسس مادية بحته ونحافظ على قيمنا الروحية الإسلامية .

اقوال غربية اخرى :

يقول « الدوس هكسلى » أن الحضارة الأوربية قامت على التفوق الذهنى وحدة وخلقت نهضة صناعية لم تحقق للإنسانية إلا القوى المادية والترف ولكنها أهملت تربية عواطفه وأخلاقه وفضائله الروحية ولم تهتم بتهذيب الإنسان التهذيب الروحى والتى توجد فى الاسلام .

ويقول « برنارد شو » أن الدين الاسلامى هو الدين السامى بسبب حيويته العظيمة فهو الدين الوحيد الذى يلوح إلى أنه الحائز أهلية العيش الأطوار الحياة المختلفة بحيث يستطيع أن يكون صالحاً لكل زمان ومكان ويضيف فيقول أن دين محمد سيكون مقبولا لدى أوربا فى الغد القريب وقد بدأ يكون مقبولا لديها اليوم ، وهكذا وجد تحول فى موقف أوربا من الاسلام وها هى أوربا فى القرن العشرين بدأت تعتنق عقيدة الاسلام وفى القرون القادمة قد تذهب أوربا إلى أبعد من ذلك فتعترف بفائدة هذه العقيدة السمحاء فى حل مشاكلها ويقول « شو » أيضاً فى الوقت الحاضر دخل كثير من أبناء قومى من أهل أوربا فى دين محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى يمكن أن يقال أن تحول أوربا إلى الإسلام قد بدأ ، ولقد بدأت أوربا الآن تعتنق الدين الاسلامى ولن يمضى القرن الحادى والعشرين حتى تكون أوربا قد بدأت تستعين بالدين الاسلامى فى حل مشكلاتها ويقول كذلك أنه لن يمضى مائة عام حتى تكون أوربا ولاسيما إنجلترا قد أيقنت بملائمة الاسلام للحضارة الصحيحة .

أن الإسلام ذلك القانون الإلهى السماوى الفريد الذى لا يستطيع أحد أن ينكر عظمته قد جعل العرب يأخذون نصيب كبير ويلعبون دورهم فى الحضارة، ولقد كانت المساواة بين المؤمنين فى الإسلام وما ساد بينهم جميعاً من أخوة مشتركة فكرة عارضت نعرة الشعور القبلى عند العرب قبل الإسلام .

أن الدين هو أهم مظهر فى أية حضارة ذلك أن احتياجات الإنسان الحقيقية هى احتياجاته الروحية وأن ما يشبع هذه الاحتياجات لهو أعظم الحقائق بالنسبة له ، ولذا نجد من أشد عيوب الحضارة الأوربية الحديثة على المجتمعات الغربية وأكثرها خطراً على رجل القرن العشرين هو جعل الأفراد عبدة للمادة وليس لله الواحد القهار وإذا كانت الأديان تحث على طلب العلم الذى يحقق فائدة للبشرية ويؤدى إلى الكمال والسمو ولا ينهى إلا عن العلوم التى تبلبل أفكار الإنسان .

وقد قال جمال الدين الأفغانى عن أثر الإسلام فى الحضارة. أكسب الدين عقول البشرية ثلاثة عقائد وأودع فى نفوسهم ثلاث خصال ، كل ركن منها عماد لبناء طبيعتها الاجتماعية، والعقيدة أقوى دافع للأمم إلى التسابق لغايات المدنية وأمضى الأسباب بها إلى طلب العلوم والتوسع فى الفنون والعقيدة أحكم مرشد وأجدى فائدة للانسان إلى المدينة الثابتة المؤسسة على المعارف الحقة والأخلاق الفاضلة .

وقال « جان جارى جابو » كان الدين أخلاقا وقانونا وفلسفة وكل شىء ولم تنفصل الفلسفة عن الدين إلا فى عصور متأخرة وإذا كان للمجتمعات كلها أديان تؤمن بها فلأن للدين فى الحالة الحاضرة منفعة عظيمة بل لأنه ضرورة حيوية ، لأنه وسيلة للبقاء والنماء ، ولذا نجد أى باحث فى تاريخ الإسلام والمسلمين يستطيع أن يتبين ما ساهم به الإسلام فى تقدم الحضارة والتى أمد بها المسلمين معظم فروع الفلسفة والعلوم والفنون ، ذلك لأن كلمة الثقافة الإسلامية تشير إلى المبادىء الإصلاحية التى تضمنها الدين الإسلامى الحنيف وهى تلك المبادىء التى أرسل بها الله رسوله محمد صلى الله عليه وسلم لتنظيم هذا العالم وإصلاحه وقيادته إلى الطريق السليم الذى يوجهه .

الدولة الاسلامية الأولى ودورها فى بناء الحضارة الاسلامية :

لقد ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم للخلفاء الذين جاءوا من بعده رسالة الإسلام السامية لكى ينشروها ما وسعتهم الطاقة فى كل أرجاء العالم، ذلك لأن الحضارة الإسلامية حضارة حقيقية مستمدة أصولها من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم والتى يهنأ الفرد فى جنباتها وتسعد الجماعة تحت ظلالها الوارفة، ولكن بعض المؤرخين حين يتحدثون عن الحضارة الإسلامية لا يريدون هذا المعنى الذى أشرنا إليه وإنما يقصدون بها ماوضعه المسلمون من أسس لبناء مجتمعهم وماساروا عليه من أنظمة هو مصدره القرآن الكريم والسنة المطهرة ونستطيع أن نرد على هؤلاء لو أن كل منهم استطاع أن يقرأ القرآن الكريم ويفهم آياته القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة ويقتفى سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وتاريخ الخلفاء الراشدين والسلف الصالح يرى أن القرآن الكريم يفسر العلم ويعلى قدره ويرفع العلماء مكاناً عالياً ومعنى هذا أنه يعنى بأصل الحضارة وينبوعها الأول ولم يكن من المصادفة أن أول ما نزل من القرآن الكريم إشارة بالقراءة والقلم والعلم وهو قوله جل شأنه « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » .

وأن القرآن الكريم يكثر من ذكر العلم والعلماء ويبين لنا الفرق الكبير بين العلماء والجهلاء ويقول الغربيون أن الإسلام شىء والمسلمون شىء آخر وبعبارة أخرى أن الإسلام كما هو فى القرآن يتضمن مبادىء سامية كالصدق والوفاء والعدل والإنصاف والرحمة والرأفة والتعاون والتعاضد وما إلى ذلك من مبادىء أكدها الإسلام وحث عليها على نحو لا يكاد نجد له نظير فى الديانات الأخرى .

لقد انتشرت الحضارة الإسلامية فيما بين المحيط الأطلنطى إلى الصين ومن جبال القوقاز وما وراءها إلى خط الاستواء وما وراءه ودخلت فى حوزة الإسلام أمم كثيرة من السلالات المختلفة وصارت الدولة الاسلامية منذ القرون الثلاثة الأولى (٦٢٠ م — ١٠٠٠ م) تشمل أكثر أجزاء العالم مدنية وتقدماً وظلت كذلك حتى تفككت وتصدت الدول المسيحية لقيادة الحضارة العالمية

ولكن شجرة الحضارة الاسلامية لاتزال أصلها ثابت فى أرض العروبة والاسلام وفروعها عالية فى السماء تتطلع لفجر نهضة جديدة محتفظة بدين الاسلام حافظة القرآن والحديث النبوى الشريف ومتكلمة بلغة العروبة لغة القرآن الكريم والتى تأخذ كل يوم مدها فى بلاد العالم كله الذى يتطلع إلى تعليم تلك اللغة ودراسة علومه الاسلامية .

فضل الحضارة الاسلامية :

لقد كانت الإسلامية هى أهم الحضارات الإنسانية ذلك أن الحضارة الفرنسية الحديثة قد استمدت من الحضارة الإسلامية والعربية أصولها الفكرية والعلمية وسارت على ضوئها فى كل ميادينها ثم نجحت فى كشف أسرار الكون والاكتشافات الحديثة وغيرها من معجزات العقل البشرى ورغم تفوق الحضارة الأوربية فى الماديات فقد تنكرت للمبادىء والأخلاق والدين والفضائل الإنسانية والمثل الرفيعة واعتزت بماديتها الطاغية حتى أصبح الغرب موطن الماديات بينما الشرق موطن ومنبع الروحانيات ومنبع الحضارة العالمية ومهبط الإنسانية الأولى وعلى هذا فقد نشأ الدين فى الشرق وذلك لأن الدين هو العقل ولا عقل لمن لادين له والحضارة الإسلامية تخضع للبيئة والظروف المكان والزمان وتعمل لتحقيق رخاء الإنسان وسعادته ويعمل الاسلام على رفع القوى المعنوية وتنميتها سواء كانت قوى روحية أو خلقية أو عقلية حتى إذا تفاعلت مع القوى المادية حققت حضارة مزدهرة سامية ، ولذا فإن الحضارة الاسلامية مستمرة ومزدهرة ومتماسكة زهاء أربعة عشر قرناً من من الزمان ولا شك فهى ظاهرة ملموسة ولا غرابة فى أن يقال العامل الجديد الذى أسهم فى بناء الحضارة هو الاسلام ذلك أن الدين الاسلامى القويم المتين الذى أنزل على محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه فى أوائل القرن السابع الميلادى والذى انتشر مع انتشار العروبة قد خلق حضارة إسلامية عربية ، وأن الناظر إلى الحضارة العربية إبان ازدهارها ليعجب من العمران الذى ساد كافة الأقاليم الاسلامية إلى درجة أن أوربا كانت مبهورة ببراعة العرب فى الفنون والصناعات وكانت تجارة المسلمين من المنسوجات والورق والمصنوعات الجلدية والأسلحة وغيرها رائجة رواجاً شديداً فى أوربا ، ومنذ القرن الثالث عشر الميلادى ، بدأ الغرب يتعلم هذه الصناعات عن العرب سواء فى

فلسطين حيث جاءت الحملات الصليبية أو في صقلية والأندلس وغيرها من الأجزاء الأوربية الأخرى التي انطوت تحت لواء الاسلام .

ولم يقف الأمر عند حد الفنون والصنائع ، بل إن العلوم نفسها كان الأوربيون لا يعرفوا شيئاً منها فقاموا إلى اللغة العربية فدرسوها وتعلموها وترجموا إلى اللغة اللاتينية كثيراً من كتب الفلسفة والفلك والهندسة والكيمياء حتى كان قانون ابن سيناء في الطب يدرس في جامعات أوربا في القرن السابع عشر الميلادي وهكذا نرى الحضارة أخذ وعطاء فقد أخذ العرب عن الحضارات القديمة فتقدموا بالحضارة وحملوا مشعلها وزادها اشتعالا وبهذه سجلت القرون العشرة التي سادت فيها الأمة الاسلامية العالم بمداد من الفخار في سجل التاريخ

أن الحضارة الأوربية الحديثة هي ثمرة الحضارة العربية الإسلامية وامتداد لها إذا كان أساسها النزعة التجريبية فإن الاعتماد على التجربة والوصول إلى القوانين العامة جاء به علماء العرب الذين توسعوا في المعامل وابتكروا وسائل الاختبار وأدوات البحث وذلك في الوقت الذي كان فيه علماء أوربا أن يكن قد وجد علماء يخشون إجراء التجارب حتى لا يتهمون بالسحر والشعوذة ولا يستطيعون إبداء آرائهم العلمية في حرية حتى لا تحاكمهم الكنيسة وأن تاريخ الحضارة الغربية يدل على أن رجال الكنيسة حاربوا العلم وحرية الفكر في حين أن رجال الدين الإسلامي أثنوا على العلم والعلماء ورأوه ضرورة من ضرورات العمران وشجعوا البحث العلمي ، ومن هنا فإن الاسلام دين وحضارة لا ينفصل أحدهما عن الآخر وذلك لأن الدين الاسلامي الحنيف يحض على العلم وطلبه ففي القرآن الكريم آيات كثيرة تحض على ذلك وفي الأحاديث النبوية الكثير من الأحاديث التي تدعو إلى طلب العلم وترفع منزلة العلماء والاسلام ذلك الدين القيم وإن كان يحث على طلب العلم والتمرس به ولكنه من جهة أخرى يأمر بالتفكير في خلق السموات والأرض ومن ذلك فإنه يجب علينا نحن العرب والمسلمين أن نعتني بإبراز المقومات الكبرى والمعالم البارزة لحضارتنا الاسلامية والعربية العريقة ولا شك أن الوقت قد آن للعناية بهذه الناحية .

الحضارة الاسلامية فى نظر الغرب :

لقد أثنى كثير من علماء الغرب ورجال فكرها على الحضارة الإسلامية واعترفوا بفضلها على الحضارات العالمية وكما للدين الاسلامى الحنيف من دور فى بناء الحضارة الخالدة فيقول « أدموند بورك » أن القانون الاسلامى قانون ضابط للجميع من الملك إلى أقل رعاياه وهو قانون نسج بأحكام نظام حقوقى وأفضل قضاء علمى وأعظم تشريع عادل ولم يسبق قط للعالم إيجاد مثله ، وقال عالم آخر أن الإسلام دين إنسانى اقتصادى أدبى ، ولم أذكر شيئاً من قوانيننا الطبيعية الوضعية إلا وجدته مشرعاً فيه وبحثت عن تأثير الدين فى نفوس المسلمين فوجدته قد ملأها شجاعة وشهامة ووداعة وكرماً وجمالا ، بل وجدت هذه النفوس على مثال ما يحكم به الفلاسفة من حب الخير والرحمة والمعروف فى عالم لا يعرف الشر والكذب .

وقال « فاليرى » إن الاسلام عجيباً فى سهولته : صريحا فى فروضه وكان هذا السبب فى انتشاره بين الشعوب التى اضطربت نتيجة لما أصابها من الشك المضنى فى عقائدها الدينية وكان هذا السبب فى انتشـــاره المتواصل بين الأمم فى آسيا وأفريقيا وغدا فى أوربا وذلك لنفوذه إلى أرواحهم .

وقال أرنولد توينبى ، لم تكن رسالة الاسلام مقصورة على بلاد العرب ، بل هى رسالة للعالم أجمع ، ولما لم يكن هناك غير إله واحد ، كذلك لا يكون هناك غير دين واحد يدعو الناس كلهم كافة الى اعتناقه .

وقال « جوستاف لوبون » القرآن قانون دينى وسياسى واجتماعى وأحكامه نافذه منذ قرون كثيرة والمسلمون أخوة لأنهم يعبدون إلهاً واحد وشريعتهم واحدة ، وقال « جوته » القرآن هو الكتاب الذى سوف يبقى تأثيره إلى الأبد لأن تعاليمه علمية مطابقة للحياة الفكرية لقوم معتزين بتقاليدهم ، متمسكين بتعاليم ماجاء فى كتابهم .

وقال « كارليل » أن علوية الاسلام فى حقيقته العالمية فهو حافل بالعدل

والاخلاص والدعوة التى بلغها محمد صلى الله عليه وسلم حق وحقيقة ، وقال عالم فرنسى آخر ، محمد خلف للعالم كتاباً هو آية للبلاغة وسجل للأخلاق وهو كتاب مقدس وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثاً أو المكتشفات الحديثة مسألة تتعارض مع الأسس الاسلامية ، فالانسجام تام بين تعاليم القرآن الكريم وبين القوانين الطبيعية ، ذلك لأن الحضارة الاسلاميه العربية حضارة أصيلة لم تقم على أنقاض غيرها من الحضارات إلا بالمقدار الذى تحتمه نظرية التزاوج والتلاحم بين الحضارات المشتركة للانسانية جمعاء والذى لابد منه فى كل الحضارات ، لقد هضمت الحضارة الاسلامية حضارات شتى وطبعتها هى بطابعها والقول بعدم أصالتها جهل بحقيقة الدين الاسلامى . فهى قد أعطت للانسانية مفهوماً جديداً عن الكون والحياة والانسان . وأصول الحضارة الحقة والعقل ومدى قدرته ، بل إن الحضارة الاسلامية تمتاز بالعرف الزمانى والمكانى ومن هنا جاءت كل قوانينها عامة وشاملة وباقية عاملة لكل الناس ، شاملة لكل فنون الحياة وقضاياها وباقية إلى يوم القيامة .

والحضارة الإسلامية هى أطول حضارة ظهرت على الأرض ولم تهن عزيمتها ، ذلك لأن ما حققه أسلافنا منذ إحدى عشر قرناً نستطيع نحن أن نواصل السير فى نفس الطريق وأن نصل الماضى بالحاضر ونعد أنفسنا للمشاركة فى بناء صرح حضارتنا العربية الإسلامية .

ادوار الحضارة العربية الاسلامية :

فى الحقبة التاريخية التى تبدأ من القرن الثامن الميلادى وتستمر حتى عصر النهضة الأوربية الحديثة فى القرن الخامس عشر الميلادى والتى فيها احتك الإسلام بالغرب سياسياً وحربياً وأسس مركزاً لحضارته فى جنوب أوربا وغربها الجنوبى ووقف فيها موقف المعلم يلقن أوربا حضارة خصبة الجوانب كثيرة الروافد ، امتزج فيها تراث العرب بتراث غيرهم من الأمم التى انطوت تحت لواء الإسلام ، وكان موقف أوربا فى ذلك الدور أشبه بموقفنا نحن من الحضارة الغربية اليوم ، فقد نبغ فيها مترجمون ، نقلوا جوانب من التراث الإسلامى إلى لغاتهم اللاتينية ،

وكان للمؤلفات الإسلامية مكان الصدارة فى الجامعات الأوربية القديمة مثل باريس وغيرها من الجامعات الأوربية ، وظهر أثر الفكر الإسلامى وترجمت روائع الأدب العربى ، وبدأت تظهر الكتب الأوربية عن الإسلام وتاريخه وتاريخ العرب والمسلمين فى العلوم ، ودفع الكثير من الأجانب إلى الإعجاب به والاشادة بمكانته ، كما تحدث كثيراً من الباحثين الأجانب عن مآثر العرب على حضارتهم، مثل الابحاث التى كتبت عن تاريخ الطب عند العرب وتطوره وأثره فى تطور الطب الحديث وبخاصة ابن الهيثم الذى تتلمذ عليه الكثيرين من علمـــاء أوربا وترجمت مؤلفات غيره من علماء العرب إلى اللغة اللاتينية واتخذت مراجع أساسية للدراسة فى معظم جامعات أوربا ومعاهدها العلمية ، وهذا لا يجعل مجالا للشك فى أن أصول الحضارة الأوربية مستمدة من الحضارة العربية الإسلامية ، وفى ذلك يقول « جوستاف لوبون » لقد كان أثر حضارة المسلمين فى الغرب قوياً فى النواحى العلمية والأدبية والخلقية ، ففى القرن السابع الميلادى هب المسلمون من شبه جزيرة العرب ليكونوا دولة عظيمة مترامية الأطراف فسارت الحضارة فى ركابهم أينما حلوا وصاحبتهم المدنية كيفما اتجهوا ، فلم يقتصر أثرهم الحضارى على الشرق وإنما تأثيرهم فى الغرب الأوربى لا يقل خطورة وأهمية عن أثرهم فى الشرق .

طرق انتقال الحضارة الاسلامية :

لقد سلكت الحضارة الإسلامية إلى أوربا عن طريق عدة معابر منها ثلاث معابر كبرى هى الشرق العربى زمن الحروب الصليبية ثم صقلية حيث نشأت دولة عربية إسلامية ظلت حضارتها قائمة زمناً طويلا والمعبر الثالث والأندلس زمن الخلافة الأموية

١ — المعبر الأول سوريا والشرق العربى :

كانا ذا أثر فعال فى هذا الميدان فالحروب الصليبية قد صاحبها بعض النشاط الفكرى والحضارى وأنسابت بعض الكلمات والمصطلحات العربية إلى اللغات الغربية ، وأثرت الحروب الصليبية فى تطور فن القتال عند الغربيين ولاسيما فيما يتعلق ببناء القلاع واستعمال المجانيق واستخدام الدروع للفرسان والخيول

والمراسلة الحربية عن طريق الحمام الزاجل ، وكذلك ففى عصر الحروب الصليبية أنتقلت كثيراً من النباتات من الشرق إلى أوربا وانتشرت أيضاً فى الغرب العقاقير والأصباغ والتوابل الشرقية كما كثر استعمال وصناعة الأقمشة التى تصنع فى البلدان الشرقية مثل الموسلين نسبة إلى الموصل والدمشقى نسبة إلى دمشق وغيرها من فنون الحضارة والتقدم والتى انتقلت إلى أوربا عن طريق الشرق ولقد اقتبس كثيراً من الفرنجة الذين عاشوا فى الشرق كثيراً عن عادات المسلمين وتقاليدهم فى الملبس والمأكل وآداب الحكم .

٢ - المعبر الثانى : جزيرة صقلية :

لقد انتقلت حضارة الإسلام وثقافته إلى غرب أوربا عن طريق صقلية حيث صار للثقافة العربية الإسلامية شأن كبير ذلك أن المسلمون تركوا لأهالى صقلية حضارة زاهرة وراقية أثرت فى أوربا ، ولقد أثرت اللغة العربية فى اللغة الإيطالية فقال « ريبالدى » ، أن الجزء الأعظم من الكلمات العربية الباقية فى اللغة الإيطالية والتى تفوق الحصر قد دخلت إلى اللغة الإيطالية لا عن طريق الاستعمار والغزو كما هو فى العصر الحديث ، بل دخلت عن طرق الحضارة التى كثيراً ماتؤلف بين مظاهر الحياة المختلفة ولقد اضطرت مدينة جنوة إلى أن تؤسس مدرسة عام ١٢٠٧م وذلك لتعليم وتدريس اللغة العربية لغة الحضارة العالمية ، ويدل على ذلك وجود كلمات عربية فى لغة هذه المدينة وفى اللغات العامية فى جميع المدن الإيطالية التى كانت لها علاقات تجارية واقتصادية مع بلاد الشرق الإسلامى وصقلية ، فقد دخلت إليها هذه الألفاظ والكلمات مع التجارة ، ولاتزال الموازين والمكاييل والألفاظ البحرية فى اللغة الإيطالية من أصل عربى .

لذا فإن الحضارة العربية الإسلامية التى هبت على ديار الإيطاليين علمتهم الشىء الكثير المفيد والنافع عن هذه الحضارة والزائر اليوم لمكتبة الفاتيكان يجد الألوف المؤلفة من المخطوطات العربية القديمة وهى كلها من تأليف علماء عرب ومسلمين نبغوا فى مختلف فنون المعرفة الإنسانية ، ولقد حمل المسلمون إلى إيطاليا كثيراً من مظاهر فنهم الاسلام الراقى والرائع المتمثل فى مختلف الفنون والتى تأثر بها

الفن الإيطالى بما وأخذ عنها الشيء الكثير والتى أدت إلى ظهور عصر النهضة فى العصور الوسطى ومن هنا نرى أن جزيرة صقلية كانت تمثل مصيراً حضارياً إسلامياً ذو أهمية بالغة وفعال فى نقل تراث المسلمين الراقى إلى دول غرب أوربا .

٣ - المعبر الثالث : الأندلس :

أما الأندلس فدورها فى دفع الحركة العلمية والنهضة الأوربية فهو دور يفوق كل الأدوار ذلك لأن الأندلس أصبحت فى عصر حكم الدولة الأموية موطناً للعلوم والعلماء ووفد إليها كثيراً من طلاب أوربا بعد أن صار فيها عدد ضخم من المستشفيات والأطباء والصيادلة ورجال الكيمياء وعلماء النبات والرياضيات والفلك والفلسفة وكانت جامعة قرطبة ومكتبتها مركزاً للعلوم يشع منها العلم إلى كل أرجاء القارة الأوربية ولقد قام الخلفاء بتشجيع العلماء على مواصلة البحث العلمى والتأليف والترجمة حتى بلغ عدد الكتب الموجودة فى مكتبة جامعة قرطبة نصف مليون كتاب وضع لها فهرس مكون من أربعة وأربعين كتاب كل كتاب منها خمسون صفحة ، وكان شغل الأمراء والخلفاء وعظماء الدولة هو جمع العلماء من شتى الأقطار وجمع الكتب من النواحى المتفرقة وتأسيس المكتبات العامة والخاصة وبذلك فقد تمت النهضة الثقافية والعلمية والأدبية فى ديار الأندلس ومع ذلك فإن كثيراً من علماء الغرب لا يذكرون فضل الأندلس الحضارى وفضل علماء العرب الذين عاشوا فيها وأدوا خدمة جليلة للحضارة الإنسانية .

وفى ذلك يقول أحد علماء الغرب ، أن الخدمات العلمية التى أداها المسلمون للعلوم غير مقدره حق قدرها من المؤرخين وأن البحوث الحديثة دلت على كثرة أعترافنا بالعلماء العرب والمسلمين الذين نشروا نور العلم بينما كانت أوربا غارقة فى ظلمات القرون الوسطى وأن المسلمون لم يقتصروا على نقل علوم الإغريق ، بل زادوا عليها وأضافوا إليها الكثير فى ميادين المعرفة العامة والمختلفة ، ولقد كانت الحضارة العلمية الإسلامية حلقة الإتصال بين حضارة اليونان وحضارة اليوم الحديثة ، ولولا ما بذله المسلمون من عناية فى حفظ وتطوير تراث الأقدمين

من علماء اليونان والهند ومصر والسريان ، وترجمته إلى اللغة العربية لضاع جزء كبير من مقومات الحضارة الحديثة التى ينعم بها العالم اليوم .

ولقد انتقلت الحضارة الإسلامية من دمشق والقاهرة وبغداد وقرطبة وغرناطة إلى أوربا فأخصبت أرضها بثقافة العلم الذى أخذ يزداد خلال الأجيال الثقافية ، وأقبل الأوربيون الذين عرفوا قدر تلك العلوم الاسلامية، وقدم أبناء أوربا إلى الجامعات الإسلامية فى طيطلة وغرناطة وأشبيله ، يدرسون أولا باللغة العربية ثم ينقبون عن أثمن كتب العلوم الطبية والرياضية والفلسفية والفلكية والكيميائية وغيرها من مؤلفات العلماء المسلمين مثل ابن سيناء ، جابر بن حيان، أبو بكر الرازى ، الزاهرى ، ابن رشد وابن ميمون ، وغيرهم من علماء المسلمين الأفذاذ ، الذين أصبحت مؤلفاتهم تدرس فى جامعات أوربا ومدارسها ولقد شجع أمراء وحكام أوربا ترجمة الكتب العربية الإسلامية إلى اللغة اللاتينية والدراسة فى المعاهد والجامعات العربية لإتقان اللغة العربية لأن هذه اللغة هى لغة الحضارة وصاحبة السيادة العلمية .

وكذلك التمكن من الدراسة بها والترجمة عنها ولم تكن الترجمة من العربية إلى اللاتينية مقصورة على مادة محددة، ولكن علماء أوربا الذين تعلموا فى الجامعات الاسلامية ترجموا كل ما وقعت عليه أيديهم وأحسوا بفائدته لهم وقدرتهم على الإضافة إليه وتطويره وقد كان ذلك حدثاً علمياً خطيراً .

والأمر الذى لاشك فيه أن الفضل الأكبر فى تقدم غرب أوربا الحضارى يرجع بالدرجة الأولى إلى مسلمى الأندلس ، فقد تولوا تقديم خلاصة الفكر الاسلامى فى العلوم والفنون والآداب والفلسفة إلى أبناء الغرب ، فضلا عن تعريفهم بالكثير من تراث الإغريق الذى اندثر ولم يبقى منه إلا الذى ترجم إلى اللغة العربية بمعرفة المسلمين أنفسهم ، ذلك أن علماء الأندلس أنصرفوا إلى الاهتمام بالعلوم والآداب والفنون ومختلف المعارف الإنسانية ، فابتكروا وجددوا فى هذه الميادين المختلفة مما أتاح لأوربا مورداً عذباً استساغت شرآ به وظلت تنهل منه حتى النهضة الايطالية فى القرن الخامس عشر الميلادى ، بل بعد ذلك

بكثير وقد وصلت الحضارة الاسلامية فى ذروتها فساعد ذلك على استفادة الأوربيين من ذلك التراث وقد قدمت الأندلس للعالم الكثير من العلماء وليس الأندلس فقط بل أصبحت البلاد الاسلامية الأخرى وخاصة العواصم الاسلامية كبغداد وقرطبة والقاهرة ودمشق وتونس ، تدرس مواد العلوم الانسانية الأدبية والكونية وقد أعترفت بهذا الكثير من علماء الغرب .

وقد قال أحد رؤساء الأديرة أنه شاهد أثناء إقامته بالأندلس طلاباً من فرنسا وألمانيا وإنجلترا ، يترددون أفواجاً إلى المراكز العلمية العربية ، وأضاف يقول « العلم قيمة عظيمة الشأن جادت بها الحضارة العربية الاسلامية على العالم المعاصر ، وقال أحد علماء المسلمين أن أوربا فى ذلك العهد ، عهد الحضارة الاسلامية فى الأندلس ، كانت غاصة بالغابات الكثيفة وذلك من إهمال الناس للزراعة وكانت المستشفيات قد كثرت حول المدن فكانت تنتشر منها روائح فتاكة وكانت البيوت فى باريس ولندن تبنى من الخشب والطين ، وكانت الجهالة منتشرة فى أوربا كلها وعمتها الخرافات والأوهام وقد سيطر الجهل على طبائع أهل هذا العصر .

وقد اعترف أحد علماء أوربا فقال « أن التفكير الاخلاقى والثقافى والعلمى الكبير الذى ينعم به العالم اليوم تدين به للاسلام وحضارته الزاهرة منذ أن كنا نسافر إلى العواصم الإسلامية وإلى أساتذة المسلمين تدرس عليهم الفنون والعلوم والفلسفة وذلك منذ أكثر من ألف عام وقد ارداد تدفق طلاب العلم من دول غرب أوربا إلى الأندلس ونشطت حركة الترجمة .

خصائص الحضارة العربية الاسلامية :

أن الحضارة الإسلامية العربية قامت على أساس المذهب الانسانى ، وقد اقتبس الغرب من المسلمين ذلك المذهب بفضل ما نقل عنهم من العلوم والفنون وذلك أثناء احتكاك الغرب بالشرق الإسلامى لعدة قرون خلال العصور الوسطى وأوضح دليل على تأثير الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى فى أوربا ، التشريع الحديث لفرنسا فإنه متأثر بالتشريع الذى كان سائداً فى الأندلس والذى

يقوم على أساس مذهب الإمام مالك بن أنس وأيضاً بقاء عدداً من المفردات اللغوية العربية حتى الآن فى اللغات الأوربية وبقاء أسماء بعض العلوم بأسمائها العربية الإسلامية .

أن الحضارة العربية الإسلامية بخصائصها الإنسانية فرضت نفسها بفضل مالها من خصائص ومقومات لا تشاركه فيها أية حضارة أخرى ، ذلك لأنه فى الأندلس أصبح للأندلس بهذه الحضارة مكاناً مرموقاً بين بلدان العالم الأوربى فقد أقبلت أوربا تقلد المسلمين أرباب هذه الحضارة وحاملى لوائها فى كل شىء وتقتفى أثرهم فى كل ما يفعلون وأخذ شباب أوربا يفد إلى الأندلس ، ولم تتجه أوربا إلى الأندلس وحدها فحسب بل اتجهت إلى جميع بلدان الشرق الإسلامى وقامت سفارات إسلامية إلى أوربا وجاءت سفارات أوربية إلى بغداد وغيرها من العواصم الإسلامية ، وبدأ عهد الإعجاب بالشرق والشرقيين ، هذا الاعجاب الذى تطور إلى درجة أن الشباب فى أوربا هجر لغته القومية وثقافته الدينية وعشق الثقافة الاسلامية ، واللغـــة العربية ، ولقد ارتفعت أصوات الرهبان بالشـكوى من جراء هذا الذى يدور فى بلادهم ، ذلك لأن أوربا قد وجدت فى أخلاق المسلمين ومعاملتهم لغيرهم من ذوى الديانات الأخرى ، مازاد فى إعجابهم وتقديرهم للاسلام والمسلمين وتطلعهم إلى الاغتراف من مناهله وتزودهم من ثقافته ، فقد تولد عن السياسة الاسلامية المتسامحة أن ازداد الاعجاب الـكبير بالحضارة الاسلامية والفكر الاسلامى الذى استطاعت أوربا أن تنقله عن أبناء الاسلام أصحاب الفضل الأكبر فى التقدم العالمى .

اوربا تنهل من حضارة الاسلام :

لقد أقبلت أوربا على الحضارة العربية الاسلامية تنهل منها ومن كل علومها فنجد أن الطب العربى ، قد أثر فى أوربا ، ذلك لأن أوربا قد وجدت نفسها لأول مرة فى تاريخها ترى مدرسة علمية للطب فى إيطاليا وسمعت كلمات عربية طبية ما تزال محتفظة بعروبتها حتى اليوم فى اللغات الأوربية المختلفة مثل الصودا والشراب والأكسير ، وغيرها من الـكلمات الطبية المختلفة ، ورأت أوربا وسمعت لأول مرة أبا بكر الرازى أول من فرق بين الحصبة والجدرى ، وابن

سينا ، أول من اكتشف جدرى السل وأول من زاول العلاج النفسى مستعيناً بالايماء قبل أن يستعين به علماء أوربا عام ١٧٢٥ م ورات أوربا كتاب ابن سينا قانون الطب مرجعاً علمياً لأطبائها فى أوائل القرن الثامن عشر الميلادى أساساً لبرامج الدراسات الطبية فى أسبانيا وفرنسا وإيطاليا حتى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، ورأت أوربا طبيباً عربياً مسلماً هو ابن الخطيب المتوفى عام ١٣٥٠م وهو أول من اكتشف السر الحقيقى لانتشار وباء الطاعون فى أوربا خلال القرن الرابع عشر الميلادى فى العصور الوسطى ، ولم يكن هذا السر الذى اكتشفه ابن الخطيب للمرة الأولى فى التاريخ إلا عدوى الطاعون كما رأت أوربا الطبيب الجراح الأول فى العصور الوسطى وهو أبو القاسم الزهراوى القرطبى ، المتوفى عام ١١٠٣ م والذى ترجمت كتبه فى الجراحة إلى اللغة اللاتينية واعتمدت عليه فى تدريس الجراحة فى جامعاتها ومنها جامعة اكسفورد حتى عام ١٧٧٨م .

ورأت أوربا أبرع الرياضيين الذين تفخر بهم الدولة الاسلامية وتدين لهم أوربا بالفضل ومنهم العالم الرياضى المشهور « ابن موسى » والذى استطاع أن يستبدل الأوتار بالمستقيمات فى علم حساب المثلثات وأن يكتشف المعادلات ذات الدرجة الثالثة ، وجاءت المدنية الإسلامية موجه إلى أوربا وألقت الدرس الأول فى الكيمياء بلسان أبو الكيمياء « جابر بن حيان » الذى اكتشف عن بعض الأحماض مثل حامض الكبريتيك والذى اكتشفه « الرازى » وحامض الأزوتيك والمعروف بالماء الملكى الذى يذيب الذهب وهو مزيج حامض الأزوتيك والكورايدريك ، ولم يفت المدنية الاسلامية أن تعرف صناعة الثلج التى لم تعرفها أوربا حتى النصف الأخير من القرن الحادى عشر ، كما أنها — لم تعرف كلمة كيمياء إلا عن المسلمين ، وقد شهد بأستاذية المسلمين والعرب فى الكيمياء والصيدلة كثيراً من العلماء الأوربيين :

وقد بدأت أوربا أبحاثها الكيميائية على أساس علم الكيمياء الذى وضعه المسلمون وهو على أســـاس سليم من الحقائق والنظريات وفى الكلمات العربية الكيميائية التى تسربت إلى اللغات الأوربيه عن العربية كالكحول والأثير وغيرها من المصطلحات والأسماء العربية التى ازدهرت وتألقت فى وقت كانت أوربا فيه

تتخبط فى الظلمات ولا تكاد ترى الضوء وهذا دليل قاطع على ما تدين به أوربا وجامعاتها للمدنية الإسلامية العربية .

ولقد كان مفكرى التراث الإسلامى على اختلاف مواطنهم يعيشون فى بيئة فكرية واحدة هى بيئة القرآن الكريم وهذا أمر له أهميته لأن هذه البيئة العقلية قد أعدت مفكريها إعداداً يخالف ما كان عليه أهل الغرب فى ذلك العصر من تهيئة ذهنية ونفسية ، فقد كان أهل الغرب فى ذلك الحين، وأقصد العصور الوسطى عصور الجهالة المسيحية واقعين تحت سيطرة رجال الدين والكنيسة .

القرآن الكريم يدعو إلى العلم :

أما أهل الإسلام وقد بينا أنهم ينتمون لمواطن عدة فقد كانوا يعيشون فى جو قائم على إعلاء أمر العقل ورفع شأنه . وقد سار القرآن الكريم بالفكر البشرى قدماً إلى الأمام معتمداً على مافطر عليه الإنسان من اتجاه نحو العقـــل والنظر فهو دين فطرة فى كل شىء .والذى يدرس قواعد أحكامه وأصول آدابه وشرائعه يرى أنها تطابق مقتضيات الفطرة البشرية ، ذلك أن الإسلام يخالف غيره من الأديان فى نظرة إلى العقل لأنه يدعوا إليه فى كل سورة من سور القرآن الكريم. بل إنه يحض عليه ، فقد تكرر لفظ العلم ومشتقاته فى القرآن الكريم حوالى ٧٦٥ مرة وحث على النظر فيما يتعلم بالإنسان من آيات كثيرة ولقد أثبت التقدم الفكرى أن القرآن الكريم كتاب دعا صراحة إلى دراسة مختلف العلوم وأنه حوى أصول هذه الدراسات فى مختلف قطاعات العلم وبلغ عدد الآيات الكونية فى القرآن الكريم حوالى ٧٥٠ آية تشتمل مختلف العلوم ، ونجد أنه فى كل علم جاء القرآن الكريم بأكثر من آية مثل علم الفلك والطبيعة والجغرافيا والنبات والحيوان وعلم الصحة الغذائية وخلق الإنسان والخصب وعلم الطب النفسى . وعلم الوراثة والكائنات الحية . وماوراء الطبيعة وعلم الاشعاع الذرى والانفجار الذرى وأيضاً أبحاث الكواكب والتاريخ الطبيعى والطيور والدواب . والكيمياء وأيضاً بالاضافة إلى الآيات العلمية التى يزخر بها القرآن الكريم وأوردها كثيراً ، نراه قد آثار الفكر ودعا إلى التفكير فيما عرضه من أدلة .

الاحاديث النبوية والدعوة إلى طلب العلم :

لقد كان الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم أول من استجاب لداعى القرآن الكريم فاهتم بنشر الدعوة الإسلامية بشقيها الدين والعلم، واستنهض الهمم للدراسة والبحث وجمع الرسول من يجيد الكتابة لتسجيل القرآن الكريم وقد طالب الرسول الصحابة الكرام بأن يتعلموا لغات الأمم غير العربية ودراسة اللغات السريانية والعبرية وهذا يظهر مدى اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم بالتعليم والتعلم وقد بدأ الصحابة بأن تعلموا بعض اللغات الأجنبية كالسريانية وهذا يظهر مدى استجابة المسلمين لطلب العلم ، ولم يترك الرسول فرصة إلا أوضح فيها مدى اهتمامه بالعلم ورغبته فى أن يتعلم المسلمون ، وأن دعوته صلى الله عليه وسلم كانت للعلوم وليس للشعر والبلاغة أو القصص ، والأحاديث النبوية الشريفة التى هدف رسول الله من ورائها إلى طلب العلم والتعلم كثيرة ، الأمر الذى جعل المؤرخين يعترفون أن نبى الإسلام قد أوصى بالعلم بما لم يوصى به دين آخر غير الإسلام ، وقد رفع الرسول الكريم فى أحاديثه النبوية قدر العلماء .

ولقد استجاب المسلمون لدعوة ربهم وأحاديث نبيهم فأقبلوا على العلم ، فتعلموا القراءة لقراءة ، قرأنهم الكريم وتعلموا الكتابة لينشروا دينهم ولغتهم، وتعلموا لغات أعدائهم ليأمنوا مكرهم وشرهم ، وكان العلم غايتهم وقام الرسول يدعوا الصحابة إلى العلم ، ولم يقتصر علم الطبقة الأولى من علماء الصحابة على التفقه فى أمور الحديث بل كانوا أصحاب علوم مختلفة، ولما زادت فتوحاتهم الإسلامية وازداد انتشار الإسلام زادت الرغبة فى تعلم اللغة العربية لأبناء سكان البلاد المفتوحة ليعرفوا شئون أمور دينهم الجديد وزاد بذلك علماء الإسلام الذين كانوا لابد أن يحيطوا بلغات البلاد المفتوحة ، ولعل الإسلام هو الدين الوحيد الذى وحد بين مكان العبادة والعلم ، فاتخذ الرسول الكريم من مسجده الذى بناه بالمدينة المنورة فى أول عصر الدعوة الإسلامية مكاناً للتعليم ، فكان صلى الله عليه وسلم يجمع المسلمين ويعلمهم أمور دينهم ويبصرهم بأمور دنياهم ولم يجد المسلمون أية صعوبة فى إيجاد أمكنة للتعليم .

التفكير العلمى الاسلامى :

ولقد زاد تقدم علماء الإسلام العلمى وحبهم للعلوم ونشر الإسلام العلم بين أتباعه ونشروه هم بالتالى فى مختلف بلاد العالم وأقاموا دور العلم الكبيرة ، بل أن أول جامعة علمية فى العالم بناها المسلمون كانت فى عام ٢٤٥ هـ أقيم فى مدينة فاس « مسجد كبير وكباقى المساجد لم يخصص للعبادة فقط بل كان دار علم يتلقى فيها الطلبة من كافة البلاد مختلف العلوم التى لم تكن قاصرة على القرآن وعلم الحديث والتفسير والفقه وإنما كان يدرس فيها علوم الرياضة والفلك والجغرافيا وقد أطلق على هذا المسجد اسم « جامعة القرويين » وهى أول جامعة اسلامية كانت تدرس فيها مختلف العلوم لكافة المراحل ، بل أنه أول معهد علمى أقيم فيه مساكن للطلبة الغرباء وفى ذلك يقول أحد رجال الغرب « دلفان » أن جامعة القرويين تعتبر أول مدرسة فى الدنيا ، وأن أقدم جامعة فى العالم ليست فى أوربا كما كان يظن العالم بل فى أفريقيا فى مدينة « فاس » عاصمة المغرب وقد تخرج فى هذه الجامعة الآلاف عشرات من الطلبة الأجانب الأوربيين من غير المسلمين ويسجل التاريخ للمسلمين أنهم كانوا أصحاب رسالة ومن أسباب النهضة العلمية التى شملت أوربا بعد الفتح الإسلامى لبعض الأجزاء من هذه القارة . ويعترف بذلك أحد طلاب الغرب لأحد زملائه فيقول لقد تعلمت الكثير من أساتذتى العرب المسلمين الذين أنت أيضا تعلمت منهم الشىء الكثير أيضاً ، ولكن ما تعلمته أنت يختلف عما تعلمته أنا من المعارف والعلوم .

ويقول أحد علماء الغرب أنه ينبغى علينا أن ننظر إلى المسلمين باعتبارهم المؤسسين الحقيقيين للعلوم الطبيعية وأنه لولا المدينة الإسلامية فى الأندلس لتأخرت المدنية الأوربية قروناً عديدة ، وأنه لو اتيحت لجيوش المسلمين أن تصل إلى قلب أوربا لتقدمت أوربا قروناً أخرى كما يشهد بذلك علمائهم ولقد اعترف عدداً كبيراً من مؤرخى العلم الأجانب بفضل علماء المسلمين كابن سيناء « وابن الهيثم » والبيرونى « والكندى » و « الغافقى » ، والبغدادى » ، « والقزوينى » وابن مسكويه » و « الجاحظ » « والخازن » وجابر بن حيان ، وابن النفيس ، ابن البيطار ، داود الانطاكى ، الادريسى ، ابن ماجد ، الدنيورى ، الصيرفى ، ابن حمزة ، الرازى ، القدسى ، الفرغانى ، الخوارزمى ، موسى بن شاكر ، وغيرهم

الكثيرين من علماء المسلمين والذين ظلت مؤلفات هؤلاء العلماء ، والمراجع المعتمدة فى جامعات أوربا كلها حتى القرن السابع عشر الميلادى .

وفى ذلك يقول أحد علماء الغرب ، أنه لولا أعمال العلماء المسلمين العلمية الرائعة لاضطر علماء النهضة الأوربية أن يبدوا من حيث بدأ هؤلاء المسلمون ولتأخر سير المدنية العالمية لعدة قرون ، ويقول عالم آخر أنه كنا قد أعتقدنا أن كثيراً من الآراء والنظريات العلمية قد حسبنا أنها من عندنا وإذا بالمسلمين قد سبقونا إليها ، وبهذا فقد ظلت الأمة الإسلامية العربية حاملة لواء النهضة العلمية لعدة قرون طويلة فى وقت كانت ما تزال فيه أوربا غارقة فى الظلام .

ولقد أهدى الفكر العلمى الإسلامى فى العصور الوسطى الإسلامية الزاهرة إلى الانسانية كثيراً من مظاهر التقدم والرقى والحضارة والرفاهية كما اهداها مصلحها الفارابى وابن سيناء وغيرهم الكثير من العلماء ، ولو قدر لهذه النهضة العلمية العارمة أن تستمر فى عنفوانها وانتشارها لكانت لهذه النهضة التى تتيه بها أوربا فى هذه الأيام من نصيب أمتنا العربية الإسلامية ولتقدمت على وضعها الحالى عدة قرون .

ولكن بغداد عاصمة الخلافة العباسية وقعت تحت سنابك الغزاة من المغول والتتار وسقطت الأندلس الإسلامية الأموية بعد أن قسمت إلى دويلات صغيرة فى يد الفرنجة وتداعت دويلات المشرق والمغرب العربى واحدة بعد الأخرى تحت وطأة الاستعمار التركى ثم الاستعمار الغربى ، ومضت أوربا فى عصر النهضة الأوربية فى الوقت الذى أخذت فيه شمس الحضارة العلمية العربية الإسلامية تميل إلى الغروب ، وبدأ أمدها العالى فى الانحسار بعد أن جعلت أوربا تفيق من سباتها الطويل لتصحو فتتلقى شمس الحضارة العربية الإسلامية ويغمرها فيض العلم العربى الاسلامى ، فقد شعر الأوربيون بتخلفهم عن المسلمين والعرب وحاجتهم إلى الاغتراف من هذا المعين العلمى الجديد .

فبدوا فى ترجمة الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية وبدأ ذلك فى القرن الثالث عشر الميلادى وانشأت فى الوقت نفسه جامعات فى أوربا ، منها جامعة باريس ،

أولا ثم جامعة أكسفورد وكامبرج ثم جامعات إيطاليا وألمانيا وغيرها من بلاد أوربا ، وظهر عدد من العلماء كان لهم أثرهم فى إنهاض الفكر العلمى الأوربى .

ثم بدأ عصر الاستعمار والرحلات العلمية فى القرن الرابع عشر الميلادى ، ثم بدأ يسطع فى سماء أوربا علماء النهضة العلمية الأوربية واتسعت آفاق المعارف العلمية وزادت فروع العلوم الطبية ولقد أصبحت العلوم العربية هى الأساس القوى الذى تقوم عليه العلوم الأوربية وفى ذلك يقول محمد إقبال شاعر باكستان « أن العلوم الأوربية الحديثة ما كانت لتظهر وتنشر ما لم تكن قد قامت على أساس العلوم التى تناولها وعالجها علماء المسلمون وقد دلت الكتب التى ترجمت من العربية إلى اللاتينية بصدق على الأثر الطيب الذى تركه المسلمون فى مجال العلوم والثقافة وكل فروع المعرفة .

ولقد كان فضل المسلمين وعلومهم على أوربا كبير إذ جاء المسلمون بمبدأ جديد فى البحث هو مبدأ يتفرع من الدين نفسه وهو مبدأ التأمل والبحث والذى بدأه المسلمون ثم مالوا إلى الاشتغال بعلوم الطبيعة وبرعوا فيها وهم الذين وضعوا أساس العلوم ، وأن الإسلام وحضارته الإسلامية أعطت العالم خلاصة ثمارها وأن تلك الصفة التى اتصفت بها مبادىء الإسلام هى التى جعلته يستقبل ضروب المدينـــة ، ولا ينافيها بل يقبلها بصدر رحب وقد قال المستشرق الفرنسى « هنرى لاوس » فى كتابة الثقافة الإسلامية أن وحدة الثقافة الإسلامية تقوم على أساس وحدة العقائد الإسلامية ، وما كان الانقسام عند المسلمين إلا فى الفروع ومهما يكن من تأثير العنصر الدينى فى الثقافة الاسلامية ، فإن الاسلام ليس فيه ما يمنع البحث العلمى ، ولقد كانت اللغة العربية من أهم دواعى وحدة الثقافة بين المسلمين ومن أهم أسباب تفوق هذه اللغة هى أنها لغة القرآن الكريم الذى يجتمع المسلمون عليه ولغة الدين ولابد من أجل فهم القرآن الكريم والحديث النبوى من معرفة اللغة العربية معرفة دقيقة .

ومما يدل على تأثر جامعات الغرب بجامعات الشرق الاسلامية ، من أن السلطات الدينية اهتزت وعلماء اللاهوت ثاروا فى وجه الذين نقلوا إليهم شروح ابن رشد

وآثار الفلاسفة العرب ، واستصدروا من البابا اسكندر الرابع خلال ست سنوات أو سبع سنوات أربعين أمراً بتحريم فلسفة العرب والمشتغلين بها وهذا يدل على تغلغل أثر المسلمين فى الثقافة الغربية ، تلك الثقافة التى تدفع إلى حرية الفكر والانطلاق وراء ماهو محسوس وملموس بعيد عن الغموض ولكن هناك بعض الأوربيين الذين يقولون أن المسلمين كان دورهم فى الحضارة الانسانية دور النقل والنسخ عن مؤلفات غيرهم وبخاصة اليونان والإغريق وهؤلاء لانرد عليهم ، بل نترك واحد من أبناء الغرب هو المستشرق الفرنسى « سيديو » يقول أن من يزعم هذا الزعم فى الوقت الحاضر ليس إلا جاهلا ، بل أنه يشكر لمدرسة بغداد الشكل الذى خلقته فى علم المثلثات الكروية فضلا عن حفظها لأهم مؤلفات علماء الاسكندرية وإضافة العرب إلى علم المثلثات مالا ينكره عاقل منصف وأدخلوا عليه تحسينات كثيرة وماذا نقول فى علم البصريات وما صنعته فيه وأدخله عليه الحسن بن الهيثم فقد امتاز علماء العرب بالغوص فى أشد المسائل صعوبة وتعقيداً .

وكان للعرب فضلهم على كل البلاد التى دخلوها فقد عمروا بلاد الأندلس ومصر وفارس والشام وشمال أفريقيا ولقد برع العرب فى مختلف الصناعات وكانت لهم صناعات متفوقة شهد لهم العالم فى صنعها ، إذا كانوا يستغلون ثروات البلاد الطبيعية ويستخرجون منها الفضة والحديد والنحاس وغيرها من المعادن مما يؤكد قولنا فى حيوية العرب فى مجال الحضارة أنهم لم ينقطعوا لحظة عن أداء رسالتهم الخالدة والحضارية وقاموا بدورهم الثقافى قروناً طويلة .

لقد ضاعت بلاد كثيرة من أيدى العرب والمسلمين وخاصة تلك البلاد التى تمنا بدراستها فى الثلاثة فصول السابقة فى أوربا ، ولكن المسلمون والعرب لم يضيعوا لأن حيويتهم وإيمانهم بدينهم وبأنفسهم أكبر من أن تتأثر بالحوادث فقد كانت أوربا رغم ظروف ضعفهم تتجه إلى العرب والمسلمين منقبة عن كنوزهم فى شتى العلوم ، بل كانت تبحث عندهم عن آثار أرسطو وابن سيناء وابن رشد وغيرهم من علماء العرب ، ولقد وجد علماء أوربا عند المسلمين المعارف التى

مكنتهم من متابعة السير فى خطى الحضارة والعرب هم الذين وضعوا أوربا على أول طريق التقدم الحضارى الحديث وزودوها بأدوات النجاح فى الوصول إلى الغايات الحضارية ، ولقد اعترف كما سبق ذكره كثيراً من علماء المنصفين بأن الغرب استمد معارفه وفنونه من موارد العلوم الاسلامية والأدبية والكونية ، ولم يكن فضل الاسلام على أوربا فقط من ناحية العلم بل كان له الفضل فى نهضتها الحديثة .

وقال « بريفوت » لم تكن إيطاليا مهد لحياة أوربا الجديدة فقط بل الأندلس أيضاً إلا أن أوربا كانت قد بلغت أشد أعماق الجهل والفساد ظلمه بينما بغداد والقاهرة وقرطبة وطليطلة كانت مركز الحضارة والنشاط العقلى لقد استعان ملوك الغرب بعلوم العرب فى نهضة ممالكهم وإقامة الحضارات بها وبناء دولهم على أسس وطيده من المعرفة ، وقصة مجيء الأوربيين للأندلس وتلقيهم العلوم فى جامعاتها ، أمر معترف به بل لقد أصبح بلاط الفونس السادس مفتاح باب الثقافة العربية لأوربا ثم ظهرت أول مدرسة للترجمة فى القرن الحادى عشر ، ومن هذه المدرسة وغيرها تخرج كبار الفلاسفة الغربيين وبقيت اللغة العربية لغة الثقافة والمعاملات والقيود ، وترك المسلمون آثارهم فى فرنسا ممثلة فى مدرسة الطب فى مونبلية ، ومن هذه المدينة نشرت ترجمة القرآن الكريم باللغة اللاتينية فى المجلة الأسبوية وانتشرت فلسفة ابن رشد وابن سينا ، والرازى إلى جامعات لومباردى ، وإلى سويسرا ولوفان وبدأت أوربا تقوم بالدور الذى قام به المسلمون فى عهد الخليفة المأمون حيث بدأت فعلا نهضة وحركة ترجمة فى طليطلة فى أكبر مراكز النقل والترجمة منذ أوائل القرن الحادى عشر وتنافست أشبيلية ومرسليا فى ترجمة العلوم والطب وتأثر الغربيون بآثار هؤلاء الكتاب فنهم من تشيع لابن رشد أو الغزالى .

وأنه لولا المسلمين لضاع أكثر العلوم القديمة ولتأخرت نهضة أوربا الحديثة قرونا وفى ذلك يقول العالم الفرنسى « لوبون » ما من مؤلف أوربى فى القرن الخامس عشر إلا وعلمه منقول عن علوم المسلمين ، وقال أنهم كانوا أساتذة

للعرب أو نقله لكتبهم وأن الكتب المترجمة من العربية لاسيما الكتب العلمية منها كانت إلى مدى بعيد الأساس الذى قام عليه التعليم فى جامعات أوربا نحو خمسة قرون .

وفى بعض العلوم ظل تأثير المسلمين فى الغرب بادياً إلى عصر قريب ، ففى أواخر القرن الثامن عشر كانت مؤلفات ابن سينا لا تزال تناقش فى جامعات فرنسا ، وكان ابن الراشد منذ القرن الثالث عشر المرجع الأعلى للفلسفة فى الجامعات الفرنسية وكان له تأثيرة أيضاً فى جامعات إيطاليا وهكذا كان فضل العرب عظيما على الحضارة لأنهم كانوا فى القرون الوسطى قوامين على علوم القدماء ، ولم يكتفوا بمدارسة تلك العلوم والإحتفاظ بها وبثها فى أنحاء العالم ، بل أضافوا إليها إضافات كبيرة وتناولها بأسلوب علمى بعيداً عن الخرافات والأوهام كذلك فإن اللغة العربية كان لها فضلها على العرب والعالم الاسلامى والحضارة كلها فمنذ أن أنتشر الإسلام فى بقاع العالم القديم ، واللغة العربية توا كب انتشاره وتتابع خطاه وتنتشر بين علماء المسلمين لتصبح اللغة المشتركة لجميع مسلمى الأرض فقد كان العلماء المسلمون يفضلون كتابة مؤلفاتهم ولاسيما الدينية منها باللغة العربية، وهكذا ظهرت المؤلفات العديدة باللغة العربية فى أنحاء الأرض وفى كل الجهات التى انتشر فيها الاسلام، ولقد ألفت كثيراً من الكتب باللغة العربية فى الهند والملايو والبلقان وغيرها من بلاد أوربا وآسيا وأفريقيا .

وما هو اليوم نرى لغتنا العربية تصبح لغة عالمية يسهل للأجنبى دراستها والتحدث بها وقراءة مؤلفات رجالها وسوف تكون اللغة الأساسية لشعوب أفريقيا التى تنشد لغة واحدة تربط بين جميع أبنائها على اختلاف لغاتهم ولهجاتهم، لقد فتحت اللغة العربية صدرها لتدوين تراث الانسانية لمدى يزيد عن أربعة عشر قرناً من الزمان واتسعت لمقومات أمة شرفت الحضارة الانسانية وحفظت المعارف الانسانية فكانت أصلح بيئة طورتها وتفاعلت معها ، وأن العالم اليوم يتجه إلى تفهم الشعوب العربية ويحتاج رجال الأعمال الأجانب إلى تعلم اللغة العربية لذا اتجهوا إلى تعلمها لأن اللغة العربية هى اللغة التى اختارها الله سبحانه وتعالى لتكون

وعاء لوجه الذى أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وسلم « إنا جعلناه قرآناً عربياً » وأن أية محاولة تستهدف زعزعة كيان اللغة العربية إنما تستهدف فى النهاية زعزعة كتاب الله والكيد للإسلام ، وسوف نحاول هنا أن نلقى الضوء على أثر المسلمين فى كل فن من فنون المعرفة .

اولا : اثر الاسلام فى الاداب الأوربية :

لقد أعطى العرب أدبهم وشعرهم لأوربا أعطوها شعر عربياً خالصاً لهم ساهم فى تطوره فى مراحله الأخيرة بعد أن استظلوا بالحضارة العربية وتأثروا بها ، ذلك لأنه كان لابد من انصهار سكان جنوب غرب فرنسا والأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا فى بوتقة الحضارة الإسلامية العربية حتى يستطيعوا أن يستقوا النماذج العربية من الفن الأدبى العربى وقد كان لهذا التأثير أثره القوى فقد نشأت أجيال مختلطة وأجيال متعايشة تعيش كلها فى جو إنسانى من التواجد الكريم الذى يلهب المواهب ويدفع إلى الابتكار والخلق سواء فى القصص العربية أو فى الشعر بأنواعه المختلفة كالشعر والحماس أو غزل الغزل والهجاء والوصف ، ولقد كانت مساجد الأندلس وجامعات فرنسا وصقلية بفضل المسلمين وعلمهم بحمل مشاعل الابتكار فى الفكر والفلسفة ذلك لأن العرب لم يؤلفوا جماعات مهاجرة مثلما كان الفتح الأوربى لأمريكا وإنما كان العرب قوم نشروا دينهم ولغتهم وحضارتهم أينما ساروا والعرب شعب متفتح أقبلوا يعطون ويأخذون ولم يفرضوا دينهم على أحد ، ولكن المسلمين يمتازون بكل ما يطبع الشعوب من قدره على التكيف بالبيئة والطموح إلى الاستفادة من كل مصدر حضارى .

ومع إنتشار الإسلام بدأ انتشار مماثل للغة العربية التى أصبحت لغة تلك الأجناس المختلفة المنصهرة فى بوتقة الاسلام ، بعد أن تعربت هذه الشعوب فى مدى قصير وعلى نحو بالغ السرعة ، ولقد أثر الأدب العربى والشعر العربى فى أوربا فقد اتصلت حياة شعراء أوربا الفنانين اتصالا وثيقاً بالحضارة العربية الاسلامية وترك الأدب أثره الواضح والقوى على كل الآداب الأوربية التى تأثرت

به وأخذت عنه الشيء الكثير وعملت على ترجمته ، وفى فن القصة أثرت تأثيراً قوياً فى القصص الأوربى التى ظهرت فيما بعد .

ويطول بنا الأمر لو تتبعنا تأثير العناصر العربية فى الأدب الغربى الذى كان يعتبر تأثيراً مباشراً للآداب العربية ، وهذا يفسر إقبال الآداب الأوربية على الأدب العربى نقلا وترجمة واقتباساً فقد ترجمت كثيراً من الروايات العربية إلى اللغة الايطالية والفرنسية والألمانية والانجليزية ولقد تركت هذه الروايات العربية أثرها القوى فى نفسية الشعوب الأوربية المختلفة الأمزجة والطباع واللغات .

ولقد أجمع الباحثون على أن الحضارة العربية كانت أعظم حضارة شهدها العالم طوال العصور الوسطى وأن فضل العرب عظيم فى الميدان الحضارى ومنها الميدان الأدبى لا على أوربا وحدها بل كل البشرية جمعاء .

ثانيا : اثر المسلمون فى الفلسفة الأوربية :

لقد أثر الفلاسفة المسلمين تأثيراً قوياً على رجال الفلسفة الأوربية وكانت المدارس الإسلامية والفكر الإسلامى مصدر هام من مصادر تكوين العقل الأوربى وكان لفلاسفة الإسلام فضل السبق فى محاولة التوفيق بين الفلسفة والدين ولم يكن فلاسفة الإسلام إلا رجال الدين وعلماء الإسلام وكان بينهم علماء بارزين مثل الكندى فهو عالم قبل أن يكون فيلسوفاً عنى بالدراسات الرياضية والطبيعية واجتهد فى تطبيق الرياضيات فى الفلك والطبيعة والطب وأصبح فى عصر النهضة الاوربية واحد من أثنى عشر قطباً من أقطاب الفكر فى العالم ويمكن أن تذكر بين الفلاسفة محمد بن زكريا الرازى وهو دون نزاع أكبر طبيب فى الاسلام بل وفى القرون الوسطى على الاطلاق ويمتاز بالأصالة دون الملاحظة واستطاع أن يكشف عن أمراض لم تكن معروفة من قبل وكتابه الحاوى فى مقدمة كتب الطب العربية التى عول عليها الاوربيين وقد منح الكيمياء قسطاً كبيراً من عنايته ودرسها دراسة واقعية تجريبية واتجه أيضا نحو الفلسفة ومن هنا يمكن القول أن الحركة العلمية فى الاسلام سبقت الدراسات الفلسفية وقد ظهر فى العالم العربى والاسلامى كثير من الفلاسفة الذين مزجوا العلم بالفلسفة .

ولا نزاع فى أن الثقافة العربية الاسلامية هى التى دفعت الأوربيين إلى ترجمتها بعد أن وقفت حركة الترجمة على بعض الذخائر العربية فرغبوا فى الاستزادة منها وفى القرن الثانى عشر الميلادى بدأت حركة الترجمة الحقيقية ونظمت وزادت وسائلها ونشأت معاهد لتعليم العربية وأصبحت طليطلة وبالرمو أكبر مراكز الترجمة فى القرنين الثـــانى عشر والثالث عشر وجمع فيها كثيراً من المصادر والمخطوطات الغربية ونظمت جماعات للترجمة وكان على رأس كل جماعة مراجعون محققون وقد جذبت طليطلة أغلب المشتغلين بالترجمة واستطاع المترجمون أن يجمعوا ثروة هائلة من المؤلفات العربية فقد حصلوا على كتب ابن رشد جميعها واستطاعت « بالرمو » أن تترجم أحسن مؤلفات العرب وعلى رأسهم ابن رشد ومن بالرمو وزعت الترجمات العربية على الجامعات الأوربية رغبة فى نشر العلم وما أن وصلت التراجم العربية إلى مختلف بلاد أوربا حتى تلقفتها الايدى فى مختلف العواصم العربية ونسخت منها عشرات المخطوطات وكانت تجارة الكتب رائجة رواجاً عظيما فى القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين .

وكان كتاب الشفاء لابن سينا له أثر كبيرا وعميقاً فى الحركة الفكرية الأوربية، وكان ابن رشد أيضاً أكثر فلاسفة الإسلام حظا فى الترجمة إلى اللغات الاوربية ومن هنا فإنه يمكن القول أن الأوربيين ترجموا قدراً كبيراً من الكتب العربية وقرأوا هذه الكتب بعناية ودرسوها دراسة عميقة وأخذا عنها ما أخذوا ورفضوا ما رفضوا وكان لها تلاميذ وأتباع وامتد أثر هذه الكتب إلى عصر النهضة والتاريخ الحديث .

ومن الناحية الموضوعية أثار العرب فى العالم الأوربى مشاكل كثيرة رددت فى المعاهد والجامعات ولم يستطع العقل الأوربى أن يفهم ماترجموا عن المسلمين واللغة العربية واستطاعوا أن يستنيروا بآراء المعاصرين من المسلمين ومن ذلك ماأرسل به فردريك الثانى حاكم صقلية إلى ملوك مصر والشام والعراق والأندلس بأسئلة كثيرة أملا فى أن يجيب عنها حكماء المسلمين وقد استطاع هؤلاء الحكماء المسلمين الإجابة عن كل هذه الأسئلة .

ثالثا : اثر المسلمون فى العلوم والطبيعة :

ليس هناك شك فى أن ظهور الدين الاسلامى كان دفعه قوية للفكر العلمى لكى يتضح وينتشر ويزيد فى معارف الإنسان ورفاهيته ونقول أليس معجزة الإسلام الخالدة هو القرآن الكريم وأليست أول آية من آياته إقرأ ، والتى تدعوا كثير من آياته إلى التفكير فى ملكوت السموات والأرض والكون والكائنات كيف خلقت ، ألا تفرق الآيات بين الذين يعملون والذين لايعملون، وبين الذين أوتوا العلم وبين الذين لم يعرفوه ، ألم يفضل رسول الله مجلس العلم على مجلس الذكر ، ألم يقسم الناس إلى فئات ثلاث ، عالم ومتعلم والباقى همج ، ولم يدعوا إلى طلب العلم من المهد إلى اللحد وإلى طلب العلم ولو فى الصين ، ألم يوازن بين مداد العلماء ودماء الشهداء ، ألم يقل صلى الله عليه وسلم غزوة فى سبيل العلم خير من مائة غزوة إلى آخر مالايكاد يقع تحت حصر من آيات وأحاديث كلها حض شديد على طلب العلم .

ولذلك ما أن استقرت الدولة الاسلامية وامتد سلطانها من مشارق الصين شرقا إلى مشارق فرنسا غربا حتى أخذ العلماء المسلمون ينهلون من موارد العلم بمختلف فروعه وفنونه فأخذوا يترجمون الذخائر العلمية وينقلون إلى اللغة العربية علوم الأغريق والرومان والفرس والهنود ، وترجموا عن الأغريقية والفارسية والقبطية والآرامية والهندية ، ونقلت ألوف الكتب من المكتبات وأقيمت دور الكتب والمكتبات وفتح الخلفاء والأمراء قصورهم للعلم والعلماء وتنافس الخلفاء والحكام فى رعاية العلم والعلماء وتسابقوا فى الإنفاق بسخاء على العلم والعلماء وقبل الخليفة هارون الرشيد الجزية كتب كما دفع المأمون وزن ماترجم ذهبا وقبل إنشاء المدارس كانت قصور الخلفاء ومنازل العلماء ودور الكتب والمساجد بمثابة جامعات يحج إليها طلاب العلم من كل أرجاء الأرض .

وجاء وقت كان فيه كل طالب علم يجد معهداً يتعلم فيه ومعلما يقوم على تعليمه ورانبا يقدم له وكان جامع المنصور فى بغداد ، والجامع الأموى فى دمشق والجامع الأزهر فى القاهرة وجامع القيروان فى تونس وجامع القروين فى المغرب

الأقصى (فاس) وجامع قرطبة فى الأندلس والجامع الكبير فى صنعاء إلى جانب بيت الحكمة فى بغداد ، ودار العلم فى الموصل ومكتبة ابن سوار بالبصرة ، ومكتبة ابن الشاطر فى الشام ودار الحكمة بالقاهرة ، كانت جميعاً بمثابة معاهد للعلم فى أرقى صورة وكانت فى رعاية الحكام من أمثال المأمون ونظام الملك ونور الدين زنكى ، والحاكم بأمر الله ، وصلاح الدين الأيوبى وغيرهم ممن يوضعون على القمة من حيث رعاية العلم والعلماء .

وفى هذه البيئة العلمية الصالحة وفى هذا الجو العلمى الحافل نشأ عدد من العلماء يصلون إلى مرتبة أعاظم العلماء فى عصرنا الحالى وكانت اللغة العربية لغة العلم يكتب بها العلماء ليقرأها الناس فى أى مكان من الوطن الاسلامى الكبير وازدهرت حركة الترجمة إبما أزدهار ، ثم أقبل العلماء على التأليف والكتابة فى مختلف فروع المعرفة العلمية ، نقلوا علوماً وابتكروا أخرى وأضافوا كثيراً من الآراء والنظريات، تكلموا عن الجاذبية الأرضية والربط بين السرعة والثقل والمسافة ولقد كان الخازن وغيره من العلماء المسلمين ممن كتبوا فى ذلك ، وتحدثوا عن أثر البيئة على الأحياء قبل « مارك » وشرح « ابن النفيس » الدورة الدموية الصغرى قبل « هارفى » ببضعة قرون وكذلك الحال فى طبيعة الضوء وسرعته والانكسارة وكذلك كتب ابن الهيثم قبل علماء أوربا ، كذلك قاسوا محيط الأرض وسجلوه وقدروا حجم الكواكب وما بينها من مسافات وأضافوا إلى المعارف الفلكية الشىء الكثير أضافها البتانى والفرغانى والكندى والخوارزمى والصوفى وغيرهم من علماء المسلمين ، وابتدع الخوارزمى فى استعمال الأرقام فى الحساب بدلا من حساب الجمل الذى كان سائداً وكذلك أنشأ الخوارزمى معلومات فى الحساب والجبر وعلمها للناس .

كذلك ألف العلماء العرب فى النبات والمعادن والفلك والرياضيات والكيمياء والصيدلة وحساب المثلثات والهندسة والطب والموسيقى وغيرها ولا يمكن أن يحجب فضل ابن الهيثم والبيرونى والكندى والغافقى والبغدادى والقزوينى وابن مسكويه والجاحظ والخازن وجابر بن حيان وابن النفيس وابن البيطار

وداود الإنطاكى والقدسى والبتانى والفرغانى والإدريسى وابن ماجد والدينورى والدميرى والصوفى وابن حمزة وابن يونس والرازى والخوارزمى وموسى بن شاكر وغيرهم من علماء المسلمين الذين ساهموا فى دفع عجلة التقدم الحضارى بما ابتكروا من معارف ونظريات لم تكن معروفة من قبلهم وظلت مؤلفات هؤلاء العلماء المراجع الأساسية المعتمدة فى جامعات أوربا فى القرن السابع عشر واعترف عدد كبير من مؤرخى العلم بفضلهم على العلم والإنسانية حتى قال قائلهم أنه لولا أعمال العلماء العرب لاضطر علماء النهضة الأوربية أن يبدءوا من حيث بدأ هؤلاء ولتأخر سير المدينة عدة قرون وقال آخر أن كثيراً من الآراء والنظريات العلمية حسبناها من صنعنا فإذا العرب سبقونا إليها وظلت الأمة الإسلامية والعربية حاملة لواء النهضة العلمية عدة قرون فى وقت كانت أوربا ماتزال غارقة فى ظلام الجهل .

وأهدى الفكر الإسلامى والعلماء المسلمين فى عصر ازدهار الحضارة الإسلامية إلى الإنسانية كثيراً من الإبتكارات العلمية وذلك لأن هؤلاء العلماء العرب كان دأبهم الأول هو تحصيل العلوم من طبيعية وفلكية ورياضية مضرب الأمثال وأنه لتشهد بذلك أعمالهم ولقد كان كل عالم من هؤلاء العلماء الأعلى كعباً والأرسخ قدماً فى علمه وفنه وإن كتب العالم منهم لتبلغ بالعشرات إن لم تبلغ بالمئات وأن الذى أعانهم على ذلك ماوهبوه من عقل راجح جبار وعبقرية فذة ناضجة إلى جانب الصبر والمصابرة مع علو الهمة وعشق المعرفة وكان اقتناعهم بأن الأسلوب العقلى والمنطقى وحده لايكفى للنهوض بالعلوم الطبيعية بل لابد من إجراء التجارب وتسجيل المشاهدات والملاحظات وتجميع البيانات والقرائن فاتبعوا الطريقة العلمية الصحيحة .

فقد كان جابر بن حيان يوصى تلاميذه بالاهتمام بالتجربة وعدم التعويل إلا عليها مع التدقيق فى الملاحظة وعدم التسرع فى الاستنتاج وبل أن تفوق العرب فى العلوم إنما هو ناشىء من الأسلوب الذى اتبعوه فى بحوثهم فالعلماء العرب هم واضعوا أسس البحث العلمى بالمعنى الحديث ، فقد تميزوا بدقة الملاحظة والرغبة

فى التجربة والاختبار ، وابتدعوا طرقا واخترعوا أجهزة والآت وقد دلت التجارب على سبق العرب فى كثير من الميادين والمجالات العلمية وأن كثيرا من علماء أوربا ساروا على نهجهم حتى حققوا النهضة الأوربية الحالية .

وقد وضع العرب مؤلفات عديدة فى الحساب ترجمت إلى اللغات الأجنبية ، وكذلك عرفوا النسب العددية والهندسة وعرفوا نظريات الإثبات واستخراج المجهول واتخذ بعض العلماء العرب من المربعات السحرية رياضة فلكية ومتاعاً عقلياً كذلك فإن العرب أول من استعمل كلمة جبر للدلالة على العلم المعروف وماتزال كلمة Alegebro مستعملة فى اللغات الأجنبية حتى الآن ويعتبر الخوارزمى أول من ألف فيه بطريقة منتظمة وكان كتاب الجبر والمقابلة المصدر الذى اعتمدت عليه أوربا وكان أثره فى تقدم علم الجبر لدى الغربيين لاينكر كما كان كتابه فى الحساب مصدراً انتفع منه الأوربيين كثيراً .

ونريد أن نكون منصفين فلانقول أن العرب هم الذين ابتكروا علم الحساب والجبر ، ونقول أنه صحيح أن حل معادلات الدرجة الثانية كان معروفاً عند الأغريق والهنود ولاشك أن الخوارزمى قد أطلع على مالدى الهنود والأغريق من علم رياضى ولكننا لم نعثر على كتاب واحد يشبه كتاب الخوارزمى ويقول أحد علماء الغرب « كاجورى » أن العقل ليدهش عندما يرى ماعمله العرب فى الجبر ونبغ العرب فى الهندسة فقد توافر عدد من علماء العرب على دراسة كتاب الأصول « لاقليدس » كما ألفوا كتاب على مستواه وأدخل بعضهم تمارين لم يعرفها القدماء فمنهم من ابتكر حلولا لبعض المسائل الهندسية ومنهم من أبرز الصلة وأكد التتابع بين النظريات والتمارين الهندسية واستعمل ابن الهيثم الهندسة بنوعيها المستوية والمجسمة فى بحوث الضوء وتعين نقطة الانعكاس فى المرايا الكرية والاسطوانية المخروطية المحدبة منها والمقعرة وقد كان ابن الهيثم عالما فى الرياضة بكل ماتحمل من معنى وأبلغ ماتصل إليه من حدود وقد قسم العرب الهندسة إلى نوعين عقلية وحسية وإذا كان العرب قد اعتبروا سباقين فى علم الهندسة فإنهم من أوائل واضعى علم حساب المثلثات فهو علم عربى بحت والمسلمون أول من ألف فيه

بطريقة علمية منتظمة وقد عرف العرب علم الفلك ولهم فيه رصدات وقياسات كثيرة وربطوا بينه وبين العلوم الرياضية ومنهم من ربط بين حركة الأجرام السماوية وحوادث العالم وقد كان علم الفلك ضروريا لبعض الأمور الدينية كأوقات الصلاة وتحديد القبلة حسب موضع البلد الحرام (مكة المكرمة) ومعرفة الموقع الجغرافى وحركة الشمس فى البروج وأحوال الشفق وهلال رمضان ، وقد اشتهر علماء مسلمون كثيرون فى الارصاد ونبغ علماء كثيرون فى الفلك ، وألفوا فيه وعملوا أرصاداً وقد ذاع صيت الفلكيين العرب مثل البطلبكى والكندى والبيرونى والخازن والطوشى وغيرهم من علماء المسلمين البارزين .

وقد نبغ العرب فى الطبيعة والميكانيكا وعالج سينا موضوع سرعة الصوت وسرعة الضوء فى كتاب الشفاء ، وأما ابن الهيثم فيعتبر مقدمة علماء الطبيعة فى جميع العصور وهو من أئمة علماء الضوء وقد عرفته أوربا باسم « الحازن » وهو تعريف لكلمة الحسن ، ألف فى طبيعة الضوء نحو أربعة وعشرين كتابا واشتهر البيرونى فى الطبيعة ولاسيما الميكانيكا وله شروح فى حفظ السوائل وتوازنها ، وألف بنو موسى كتابهم الذى يعتبر الأول فى نوعه فى الميكانيكا وإيجاد مراكز الثقل ووصف الرازى الأجهزة العلمية التى كانت معروفة فى عصره وكان كتاب ميزان الحكمة للخازن لهشأن عظيم فى تاريخ الطبيعة وتقدم الفكر العلمى عند العرب وهكذا نرى أن كتب الخازن وابن الهيثم والبيرونى وغيرهم من العلماء العرب كانت المراجع المعتمدة لدى أهل الصناعة فى أوربا حتى أواخر القرن السابع عشر وكانت المعين الذى استقى منه هؤلاء ونهلوا منه كل ما يحتاجون إليه وأضافوا إليه فيما بعد .

وفى الكيمياء يعتبر جابر بن حيان شيخ الكيميائيين العرب ويعتبر مؤسس علم الكيمياء بالمعنى الحديث فقد بين أهمية التجارب وكذلك أوصى بالدقة فى الملاحظة والاحتياط وحول المعادن الخبيسة إلى معادن نفيسة وخاصة الذهب وأدخل جابر على الصناعة شيئاً جديداً اسمه علم الميزان وعرف جابر كثيراً من العمليات الكيميائية كالتبخر والتقطير والترشيح والإذابة والتبلور ووصف كثيراً من المواد الكيميائية وعرف خواصها مثل نترات الفضة وحامض الأزتيك .

والمعروف أن كتب جابر بن حيان فى الكيمياء قد ترجمت وغيرها من كتب الكيمياء العربية إلى اللغة اللاتينية وظلت المراجع المعتمدة فى الكيمياء وخاصة عدة قرون وكانت مؤلفاته موضع دراسة مشاهير علماء العرب وقد وضعه علماء الغرب فى القمة بين العلماء العرب وأن علماء الغرب لم يستطيعوا تصور أن تكون هذه الأعمال العلمية القيمة فى الكيمياء تنسب إلى رجل عاش فى القرن الثانى الهجرة .

وأما أبو بكر الرازى فقد اشتهر بالطب والكيمياء ويعتبره البعض من مؤسسى علم الكيمياء الحديثة وقد ابتكر أجهزة ووصف أخرى فقد وصف أكثر من عشرين جهازاً وقد حضر الرازى الأحماض مثل حامض الكبريتيك وسماه زيت الزاج ، وليس هناك شك فى أن عدداً من علماء العرب قد أولع بالكيمياء وكتب وألف فيها حتى ولم يشتهروا بها أمثال ابن داود الانطاكى وابن البيطار والبغدادى وابن ميمون وابن النفيس والزهراوى وغيرهم من علماء الإسلام

علم النبات :

وعلم النبات كان له عشاق ومريدين من علماء العرب وكان لهذا العلم ارتباط كبير باعتباره تابعاً لعلوم الطب والصيدلة إذ كانت أغلب العقاقير المستعملة فى العلاج إن هى إلا نباتات ذو خلاصات نباتية وقد حض ابن سينا فى كتابه الثانى من القانون دراسة النباتات وقد اعتمد ابن سينا فى وصفه للنبات على الطبيعة وقد وصف ابن سيناء على هذا النحو أربعمائة نبات وفى كتاب الشفاء أيضاً وصف الشيخ بعض أجزائه لدراسة النبات وأورد كثيراً من النظريات ومن الذين اشتهروا بالنبات (ابن البيطار ، العشاب ، الأندلسى الذى جاب شمال أفريقيا ومراكش والجزائر وتونس وكان رئيساً للعشابين فى مصر كما درس نباتات سوريا واشتهر بالطبيب الحاذق والعشاب البارع وقد اشتهر بمؤلفين من ثمرة دراساته أولها الجامع فى مفردات الأدوية والأغذية ، والثانى كتاب المغنى فى الأدوية وقد ذكر ماهيات هذه الأدوية وقوامها ومنافعها ومضارها وقد ذكر فيه أسماء النباتات بعدة لغات وقد وصف عدة مئات من النباتات رتبها

ترتيباً أبجدياً وقد غلب على كتابه المادة الطبية وكذلك اشتهر داود الانطاكى بكتابه الضخم «تذكرة أولى الألباب والجامع العجاب» ويعنى بذكر مواطن النبات وزمان قطفه وقد أتى غلى وصف مئات من أنواع النبات .

وممن اشتهر بعلم النبات أيضاً عبد اللطيف البغدادى الذى عاش زمن صلاح الدين الايوبى واشتغل بالتدريس فى الأزهر بالقاهرة كما درس فى الجامع الأموى بدمشق وقد وصف البغدادى نباتات مصر وصفاً دقيقاً ، كذلك شغف القزوينى بعلم النبات وأتى فى كتابه «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» على وصف كثيراً من النباتات من محاصيل وخضروات وفاكهة وأورد إبن سيدة فى كتابه «المخصص» وصفاً كثير الأنواع للكلا والشجر والعشب والحنظل وغيرها ، وكذلك عنى الإدريسى بدراسة النبات وكذلك فعل غيره الكثيرون مثل الدينورى والغافقى والقرطبى وابن الصورى فى وصف مئات من الأنواع النباتية .

والذى لا شك فيه أن أغلب علماء النبات من العرب إنما تغلب عليهم الناحية الطبية وإن اهتم بعضهم بوصف بعض النباتات غير الطبية كما اهتم آخرون بطرق الزراعة .

الحيوان :

وكذلك اشتهر بدراسة الحيوان عدد غير قليل من العلماء العرب وكتبوا كثيراً عن علم الحيوان وقد عرض ابن سينا فى كتاب الشفا جزء مفصلا لدراسة الحيوان فأورد نماذج رائعة لأنواع مختلفة من الحيوان والطيور وأسهب فى التشريح المقارن بين الحيوانات المختلفة والطيور والأسماك وأن جولانه فى وصف أنواع الحيوان من طير وسمك وزواحف وثدييات وبرمثيات لما يذكر له بالتقدير ولا شك فى أن ابن سينا مارس التشريح سواء ذلك فى جسم الانسان أو مختلف أنواع الحيوان وإلا لما استطاع أن يصف بدقة هذه الأجهزة المختلفة لتلك الكائنات وفى ذلك أنه يذكر تفاصيل لا تكاد نعرفها فى الوقت الحاضر إلا باستعمال العدسات والمجاهر وكذلك عنى بعض العشابين مثل ابن البيطار، وداود الانطاكى بوصف كثير من أنواع الحيوان مما نستخلص منه عقاقير علاجية كما وصف

عبد اللطيف البغدادى كثيراً من حيوانات مصر وكذلك فعل القزوينى فى كتابه عجائب المخلوقات وذكر ابن سيدة فى بعض أبواب الجزء السادس من كتابه المخصص وصفاً للخيل وما يختص بها وصفاتها وأحوالها كما تحدث عن الإبل والغنم والماعز والسباع والكلاب والطيور والنحل وغيرها من مختلف أنواع الحيوان فقد ألف شعراً ضخماً فى كتابه الحيوان ذو السبعة أجزاء وقسم الحيوان إلى ثلاثة وقد سجل الجاحظ ملاحظات عجيبة فى سلوك الحيوان ، سجلها بدقة تنتزع التقدير والإعجاب كما أنه أجرى بعض التجارب على بعض أنواع الحيوان كذلك عالج الدميرى موضوع الحيوان بالطريقة التى جرى عليها علماء العرب من حيث ترتيب أسمائها حسب حروف الهجاء ونلاحظ أن الدميرى كان له أثر بارز عمن سبقوه من العلماء العرب أمثال الجاحظ وابن سيده وكان كتابه موسوعة ميسرة لما فيها من نفع علمى .

الصيدلة :

وكانت الصيدلة العربية التى برع فيها العلماء العرب تابعة لعلم الطب وأن جميع الأطباء العرب قد كتبوا فى الصيدلة كما كتبوا فى النبات بوصفهما فنيين لازمين للطب وقد خصص ابن سينا جزء خاص من كتاب القانون للمادة الطبية والصيدلة كما كان له يورد وصفا تفصيلياً للنباتات التى تستخدمها كأدوية ولقليل من الحيوانات والمعادن التى تستخلص منها عقاقير نافعة وقد وصف ابن سينا عدد النباتات التى تباع عند العطارين من أخشاب أو قشور أو ثمار أو أزهار مما يتفق وعلم النبات الصيدلى ثم وصف طريقة استخلاص العقاقير كذلك فعل ابن الهيثم فى كتابه الطب الذى قيل أنه يقع فى ثلاثين جزء كما فعل ثابت بن قرة الذى خصص كتابه فى أجناس ما تقسم إليه الأدوية كما فعل الرازى الذى حضر الكحول بتقطير المواد النشوية وكان يستخدمه فى الأدوية والصيدليات ، كما أن له كتاب فى الصيدلة كذلك .

وأما ابن البيطار فقد جمع فى كتابه الجامع لمفردات الأدوية والأغذية مجموعة من العلاجات المستخلصة من النباتات والحيوانات والمعادن وكذلك فعل داود

الانطاكى فى كتابه تذكرة الألباب والجامع للعجب العجاب وكذلك شغف العرب منذ فجر الحضارة الإسلامية بالمعادن والتعدين .

فقد شغل كثيراً من العلماء العرب بتحويل المواد الخبيسة إلى مواد نقية وخاصة الذهب «والبيرونى» كتاب عنوانه «الجاهر فى معرفه الجواهر» و«رسالة فى المعادن» ويشهد الجيولوجيون المحدثون بإن البيرونى فى كتابيه هذين يعتبر جيولوجيا ممتازاً على أن كثيراً من العلماء العرب قد عالجوا موضوع المعادن لاستعمال بعضها فى الأدوية والعقاقير .

وفى الجملة فقد تناولت كتابات العرب فروعا مختلفة فى الجيولوجيا مثل علم المعادن وعلم الحجار الكريمة وعلم الصخور ، كما تناولوا الجيولوجيا الطبيعية وعلم البحار وعلم الحفريات والمساحة الأرضية واهتموا بصناعة التعدين واستغلال الخامات .

والخلاصة أن العلماء العرب فى العصر الإسلامى قاموا بدورهم الطليعى خير قيام فى بناء النهضة العالمية فعلى امتداد الامبراطورية العربية الاسلامية من مشارق الصين شرقاً إلى حدود فرنسا وجنوب إيطاليا غرباً كان على كل من أراد أن يكتب علماء تقرأه الناس لجأ إلى اللغة العربية فكتب وألف بها وظلت كتبهم فى العلوم الطبيعية والمراجع الأساسية والمعتمدة فى جامعات أوربا حتى أواخر القرن السابع عشر الميلادى ترجمت إلى اللغات الأوربية المختلفة بعد أن ترجمت أولا إلى اللغة اللاتينية لغة أوربا الأم التى تفرعت منها اللغات الأوربية .

وما أن عرفت الطباعة فى منتصف القرن الخامس عشر حتى طبعت هذه الكتب عدة مرات وشهد لهم كثيرون من مؤرخى العلم مثل شارتون وسميث وكاجوى وغيرهم من علماء أوربا بأنه لولا أعمال العلماء العرب لاضطر علماء النهضة الأوربية أن يبدأوا من حيث بدأ هؤلاء ويدلنا تتبع تطور الفكرى العلمى على مر العصور كيف أثر العلماء العرب والمسلمين فى النهضة الأوربية وكيف تأثر علماء أوربا بأعمال العلماء العرب ولعلهم هم أصحاب الفضل الأول فى وضع الطريقة العلمية والمنهج التجريبى حتى قيل بحق إنه لولا ما أصاب الامه العربية

الإسلامية من محن على أيدى الغول والتتار والترك والصليبيين والاستعمار الحديث لكانت هذه النهضة العربية الإسلامية هى أستاذة النهضة الحديثة اليوم وكانت ما تفاخر به أوربا من نصيب الأمة العربية الإسلامية ولكانت لغتها العربية هى اللغة الأولى فى العالم اليوم دون سائر اللغات الأخرى فقد كانت هى لغة العلم الأولى فى العصر الاسلامى .

رابعاً : اثر الطب العربى فى اوربا :

لم يكن فى العالم المتحضر فيما بين منتصف القرن الثامن والقرن الخامس عشر علم طبى يعتد به إلا ما كان عند العرب والمسلمين وما كان عند غيرهم لم يكن إلا منقولا منهم ولم يشك أحد من أهل القرون الوسطى فى تفوق العرب فى الطب علماً وعملا وتنظيماً وهذه حقيقة تاريخية ثابتة لا نزاع فيها فلقد بذل الرواد من مؤرخى العلوم جهداً بالغاً فى دراسة تاريخ الطب العربى ، ووصفوا كيف نشأ فى بغداد وكيف نما وأزدهر حتى بلغ أوجا عظيما فى عهد الرازى وابن سينا وكيف انتقل بعد ذلك إلى عواصم الأمم الأوربية وكانت الكتب تترجم من العربية إلى اللاتينية وهذه الترجمة وقع فيها كثيراً من الأخطاء لأنها كانت تتم من العربية إلى العبرية ومن العبرية إلى اللاتينية وهذه التراجم المزدوجة كانت مصدر أخطاء عديدة وكان من المترجمين من ينسب إلى نفسه مؤلفات عربية يلتمس بذلك لنفسه الشهرة وكان أكثر المترجمين لا علم لهم بعلم الطب وأوقعهم الجهل فى أخطاء كثيرة وقد قال بعض العربيين عن الطب العربى أنه ليس فيه جديد، ومن السهل أن ندحض هذه الدعوى بذكرى عدد من الكشوف العربية والمعروفة وقد يدلنا البحث فى بطون المحفوظات على كشوف أخرى ، فقد عرف العربى طب أبقراط وجالينوس ، فازدهر فيهم وطبق الأطباء العرب العلم النظرى تطبيقاً جميلا .

ويقال عن طبيب عربى هو الحارث بن كندة فى أواخر القرن السادس عشر وكان قد تعلم الطب على السريانى ولكن ما نقل إلينا عنه لا يدل على علم كبير وتقوم شهرة مدينة « جندشابور » عند مؤرخى العرب على أحراز

آل بختيشوع من شهرة ومجد وحظوة عند الخلفاء العباسيين ولا شك فى أنهم كانوا يمثلون صنفاً من الأطباء كان معروفاً عند القدماء وهم أطباء البلاط وكانت الصفات الغالبه عليهم هى المهارة وحسن التصرف وأن فضلهم على النهضة الطبية العربية يكاد يكون مقصوراً على أنهم ينبهوا أذهان العرب إلى علم لم يكونوا ليعرفوا عنه إلا الشىء القليل ولكن سرعان ماترك العرب طب السريان واستقلوا عنهم وتفوقوا عليهم تفوقاً ظاهراً فى التأليف والممارسة ولقد كان العرب على استعداد لقبول العلوم بكل فروعها بما يتلائم مع الدين الإسلامى الحنيف .

وأن العرب كانوا على قدر من التقدم الفكرى بحيث يسمح لهم باستيعاب كل هذه العلوم بل أن التفكير العربى كان قد بلغ فى تطوره حداً بعيداً وقد كانت للعرب علومهم الخاصة بهم ، ساروا فيها شوطاً كبير ووضعوا لها أصولا مستقرة ومناهج واضحة وكان هذا من عملهم وحدهم فالعرب لهم علومهم الخاصة بهم ومنهجهم فيها وتفوقهم فى أصولها وفروعها إلى استقبال العلوم التى لم يكن لهم بها عهد والتى تقوم فى جوهرها على تفكير قريب جداً من تفكيرهم ومن هنا كان النجاح الذى أحرزته الفلسفة والطب والعلوم لدى العرب لم يأخذوا من اليونان إلا ما وافق طريقة تفكيرهم ومما زاد فى إقبال العرب على الطب وضوح مبادئه ونجاح وسائل العلاج القائمة على هذه المبادىء ولم يجدوا صعوبة فى التوفيق بين خبرتهم العلمية والأسس الفكرية التى نقلوها عن اليونان .

وتاريخ الطب العربى تاريخ طبيعى يشبه فى جوهره تاريخ النهضات العلمية عامة وكان تطوره على خطوات واضحة المعالم قام بها الأطباء العرب طبقة بعد طبقة وكل طبقة تبدأ من حيث انتهى علم من سبقوها وتزيد فيه والمطلع على طب الرازى وابن سينا لا يسعه إلا أن يعترف بأن الطب العربى كان له حياته القوية المستقلة ولقد مر الطب العربى بعدة مراحل حتى بلغ عصره الذهبى وكان الرازى أكبر رجال هذه الطبقة وإليه انتهى الطب الا كلينيكى عند العرب ولعله يكون أكبر الأطباء الذين تنشئوا على نهج الخبرة المنظمة عقلياً ولاشك أن الرازى كان أستاذاً بارعاً له نظام مستقر وواضح فى تعلم الطب النظرى والطب الا كلنيكى وله رأى واضح فى امتحان الأطباء ووضع نظام مالتنسيق أسماء الأدوية باللغات اليونانية والسريانية والعربية والفارسية والهندية ومقاديرها .

وكانت الحالات المرضية التى تفرض فى البيمارستان تعرض أولا على الأطباء الناشئين فإذا لم يعرفوها عرضت على من هم أكبر منهم فى الخبرة الطبية فإن عجزوا عن علاجها عرضوها على الرازى وكان يبدى رأيه فى الحالات الصعبة وكان يدون رأيه فى التشخيص والعلاج وكانت لهعدة مؤلفات منها كتب فى العلم النظرى واضحة ومنسقة ومبوبة وكتب فى الطب الا كلنيكى وهى مجموعة مشاهدات وهى بطبيعتها ليست مقسمة إلى أبواب على أن مجد الرازى يقوم على علمه بالطب العملى وخبرته فيه وما ابتدعه من تدوين والمشاهدات والتعليق عليها وهو عمل لم يسبقه إليه أحد من قبل وقد جمع ذلك كله فى كتابه الحاوى وكان هو وتلاميذه يدققون ويدونون المشاهدات كما عرضت عليهم ، وليس لنا أن ننسب إلى الأطباء العرب معرفة العلم التجريبى كما نعرفه اليوم ولكن الرازى فى بعض أقواله يدل على فهمه لبعض أسس التجربة بالمعنى الحديث ولابد أن نشير هنا إلى كتابه الحاوى الذى ترجم إلى اللغة اللاتينية ولعلهم لم يستفيدوا منه كثيراً لأن علمهم النظرى فى ذلك الوقت لم يكن بالقدر الذى يسمح لهم بتفهم الطب الا كلنيكى ولم يكن عندهم من العلم بالمرضى والأمراض ما يسمح لهم بمعرفة فضل هذا الكتاب الطبى الهام .

ثم جاء على بن العباس وهو من تلاميذ الرازى فوجد لديه علما نظريا عزيزاً وعلما عمليا مستقراً فبدا له أن يؤلف كتابا جامعا فى الطب يكون أوضح من كتاب أبقراط وهذا تطور طبيعى فى تقدم الطب وكتب على بن العباس كتابه « كامل الصناعة » وهو كتاب جيد ولعله أول كتاب عربى كبير ترجم إلى اللغة اللاتينية حيث عرف بالكتاب الملكى .

ثم جاء ابن سينا وهو من أذكياء العالم وكتب كتاب القانون وكان لابن سينا على الأطباء فضل لاينكر فإذا كان فيلسوفا ممتازاً فقد كان طبيباً ممتازاً أيضاً جمع فى كتابه بين أسلوب الفلسفة وحقائق الطب والواقع أن العرب كان فيهم الأطباء والفلاسفة وابن سينا بلغ الغاية فى الفلسفة والطب ولكنه مع ذلك كان أكثر ميلا بطبيعته إلى الفلسفة ومن هنا كان كتابه مقبولا عند المفكرين والممارسين للطب على حين كان كتاب الرازى أكثر قبولا عند الممارسين خاصة

وكتاب القانون من الكتب العالمية وفيه حل لكل المشاكل المتعلقة بموضوعه بحيث لا يجد معاصيره حاجة إلى الزيادة فيها أو تغيرها .

وهذه هى خصائص العلم القديم القائم على كميات محدودة ولنذكر أن نهضة طبية مماثلة قامت فى الأندلس وتطورت على غرار طب الشرق القائم فى بلاد الشرق الإسلامى ولكنهم فى الأندلس عنوا عناية خاصة بالجراحة وكتب فيها الزهراوى كتبا قيمة وصف فيها الآلات الجراحية التى اخترعها ووصف عمليات كثيرة وصفاً دقيقاً كالشق والكى والفصد وتفتت الحصى ، ويبدو أن الطب العربى لم يتقدم كثيراً بعد ابن سينا وكتابه إلا أن فن العلاج فى البيمارستات ظل يتقدم وتحسنت حال المرضى فى هذه المؤسسات واعتنى بها الأمراء الأطباء وبلغت مبلغاً من الرقى والتقدم تحدث به الرحالون من أهل الغرب .

وهكذا كان حال العلوم الطبية فى الامبراطورية العربية الإسلامية الممتدة من حدود الصين إلى الأندلس فى فرنسا وجنوب إيطاليا وصقلية طوال سبعة قرون ولم يعمل العرب على نشر علومهم فى البلاد المجاورة ولكن الأمم الأوربية سمعت بتقدم الطب عند العرب وعلمت عنه الشىء الكثير فجاءوا إلى البلاد العربية يتعلمون فيها الطب على يد المشاهير العرب من أساتذة هذا الفن العظيم وكان طبيعياً أن تستفيد الأمم الأوربية من الحضارة المزدهرة فى ذلك الوقت ولقد استفادت الأمم الأوربية من حركة الترجمة التى قام بها العلماء فى بالرمو فى صقلية وكان أثرها فى النهضة الأوربية أكثر كثيراً من أثر الاتصال بين العرب والفرنجة ولم يكن نمو التفكير العلمى فى ذلك الوقت فى الأمم الأوربية متقدماً فكان أثر الطب العربى فيهم محدوداً ولم تكن حركة التبادل العلمى بين العرب والأوربيين وحركة الترجمة من العربية إلى اللغات المجاورة نتيجة لتسامح المسيحيين مع المسلمين وإنما كان الإقبال على نقل الحضارة الإسلامية إلى الأمم الأوربية نتيجة مباشرة ودليلا قوياً على اعترافهم بتفوقها وعلى رغبتهم فى الإفادة منها والتغلب على العرب فى أقوى تواجدهم وهى الثقافة العربية الإسلامية .

ولقد كانت حركة الترجمة شاملة ولا أحسب كتاباً عربياً ذا قيمة لم يترجمه المترجمون فى ذلك العصر ترجموا الكتب الطبية الشهيرة وغيرها مما هو أقل شهرة

وعنوا بكتب العقاقير لابن البيطار والهروى ومساويه المرديني ولقد أضاف المسلمون إلى الطب اليونانى الكثير وليس كله من المصنفات والذى يطلع على طب الرازى ووصفه للمشاهدات الطبية وطريقة تدبير ما عرض له من مشاكل لا يشك فى أنه كان أعظم طبعا من سابقيه جميعاً، ولقد عمل العرب فى التشريح على أن ما عمل فى التشريح ووظائف الأعضاء هو ما عمله ابن النفس فى شرح الدورة الدموية الصغرى ، وبذلك فان المسلمين فهموا الأمراض وطبيعتها بقدر ما يسمح به ذلك الوقت وأنهم كانوا أقرب إلى الصواب حيث كانوا يصفون المرض دون بحث فى هذه الأمور وابتدع الأطباء العرب كذلك علم التشريح المقارن وللرازى فضل السبق فى هذا المضمار ، وكان لكبار الأطباء العرب فهم جيد لتقدم المعرفة الطبية يضعون العلامات الجيدة والرديئة مرتبة على أقدارها وليس لنا أن نتعرض بالنقد لوسائل العلاج عند العرب إذا لم تكن لديهم من الوسائل إلا القليل ونستطيع القول أن الغربيون أفادوا من الطب العربى فضلا عن هذه الكتب الجامعية لمادة علمية غزيرة جداً تتعلق بالطب الاكلنيكى وهم بذلك مدينون للكتاب الحادى وأمثاله وهذا باب من أبواب الطب لم يعرفه اليونانيون ، وقد أتقنه المسلمون والفضل فى ذلك التقدم العلمى الطبى يرجع إلى الطبيب العربى أبو بكر الرازى فهو الذى ابتدع علم التشخيص المقارن واستقصاء الدلالات والتمييز بين الأمراض المتشابهة وأخذ الغربيون عن الكتب الاسلامية الطبية علمهم بالعقاقير والأدوية المركبة والمفردة وكان كتاب ابن البيطار المرجع الأساسى الهام لهم فى أواسط القرن الثامن عشر ، كذلك فان الأوربيون أخذوا عن العرب خبرتهم فى فن الجراحة والتشريح حيث كان كتاب الزهراوى مرجعا أساسيا عند كل ممارس للجراحة فى أوربا .

وأخذ الغربيون عن العرب والمسلمين نظام البيمارستانات وكان العلاج فيها حسناً إلى حد كبير حتى قيل أن بعض الأصحاء كانوا يدعون المرضى ليقيموا فيها والواقع أن الطب العربى كان ناجحا جداً ومتطوراً فى القرون الوسطى وكانت الأمم الأوربية جميعها تجهل الطب جهلا يكاد يكون تاماً وكان تقدم الطب الاسلامى يحتم عليهم أن يأخذوا بكل ما وصل إليه العرب فى هذا العلم وهكذا

أخذوا ينقلون الطب الاسلامى كله عملا وعلماً إلى بلادهم وعرفوا منه القدر الذى يسمح به تقدمهم الفكرى فى ذلك الوقت وذلك فان العرب حملوا شعلة العلوم قائمة بعد أن كاد يطفئها الاهمال والجهل حتى تلقفها الغربيون فدبت فيها الحياة القومية التى شبدتها عصور النهضة وبذلك يكون الطب العربى قمة الطب الوسيط ، اعتمد على الطب القديم وبلغ به أرقى ما يمكن أن يسمح به للعصر وانتقل بحكم هذا الرقى إلى البلاد الغربية بجملته علما وعملا .

خامساً : اثر المسلمون فى النهضة الجغرافية فى اوربا :

لقد كانت الجغرافيا فى مقدمة العلوم التى أولاها العرب والمسلمون الكثير من اهتمامهم فكثرت مصنفاتهم وكتبهم فيها ولا تزال هذه المصنفات وأن يعد بها العهد تمثل مرحلة بارزة فى تاريخ الفكر الجغرافى عند العرب وتطوره ، ذلك أن عناية العرب بالجغرافية كانت وليدة ظروف البيئة إلى حد كبير ، إذ كانت رحلاتهم السليمة والحربية فى الصحراء الواسعة لا تتم إلا إذا عرفوا الكثير من النجوم والكواكب وما كان لهم أن ينتقلوا بإبلهم وأغنامهم إلا إذا عرفوا موارد الماء ومنابت العشب وعرفوا أماكن وحوش الصحراء ليقوا خطرها ومع اتساع الدولة العربية التى شملت مساحات واسعة من قارات آسيا وأفريقيا وأوربا وأصبح من الضرورى الوقوف على أحوال البلاد التى فتحها المسلمون ومعرفة الطرق التى تربط أجزاء هذه الدولة الواسعة .

وكان الحج أحد معالم الجغرافية العربية ذلك لأن الحج كان يتطلب معرفة طرق القوافل المتجه إلى مكة والمدينة وكان هو نفسه عاملا له أهميته فى زيادة التعارف بين المسلمين وتبادل المعلومات فقد أصبحت مكة المكرمة بعد انتشار الإسلام ملتقى آلاف الحجاج يفدون إليها من كل الجهات وهم من أجناس مختلفة بجانب اتساع الدولة الإسلامية جعل العرب ورثة التراث الثقافى لهذه الدولة الواسعة وربط العرب فى دولتهم بين العلم والدين وبنوا فى الوقت نفسه حضارة عالمية وكانوا قد أصبحوا سدنه العلوم القديمة والقوامين عليها وكانت رغبة العرب فى المعرفة هى نفس رغبتهم فى نشر الإسلام وهكذا فان فضل المسلمين على الحضارة الغربية أنما يتمثل فى صيانتهم لأسس هذه الحضارة ولولا العرب لتقطعت

الصلة بين ماضى أوربا وحاضرها ولما استطاعت أن تشهد عصر النهضة الذى قام على أساس الحضارة العربية الإسلامية .

وأثر المسلمون وجهودهم فى الجغرافية وما أضافوا إليها فى ميادينها المختلفة وبخاصة الجغرافية الوصفية والفلكية فذلك أمر قد ألفت فيه عشرات من الكتب فى مختلف اللغات وان كتابات العرب والمسلمين كانت أساساً من الأسس التى قامت عليها النهضة الأوربية فى العصر الحديث وكيف كانت أبحاثهم وآراؤهم نبراساً اهتدى بها علماء الغرب فنقلوا عنهم وساروا على دربهم ، فلقد ظهر بين العرب والمسلمين علماء أفذاذ أضافوا إلى العلم أحسن التحقيقات عن طريق الأرصاد الفلكية ومشاهدة الرحلات وتمحيص الروايات وما كانت الكشوف الجغرافية تتم لولا ما وقف عليه الغرب من كتاب العرب ولولا ما وصل إليهم من الأجهزة والأدوات التى سهلت عليهم الاتصال بسفنهم عبر المحيطات، ولقد أسهم المسلمون فى حركة الكشف الجغرافى إسهاما فعالا فهم قد عرفوا أوربا وأفريقيا الشمالية حتى حدود المنطقة الاستوائية ، وأوغلوا بعد ذلك فى ساحلها الشرقى حتى وصلوا إلى قرب مدار الجدى ووصف العرب فى دقة وتفصيل العالم الممتد من كوريا حتى سواحل المحيط الأطلنطى واهتموا بكل الجوانب الجغرافية لهذه المنطقة الواسعة فتحدث المسعودى مثلا عن الرياح الموسمية فى المحيط الهندى ومواعيد هبوبها وأثرها على الملاحة البحرية ، ولم يفت العرب أن يتحدثوا عن الجغرافية الاقتصادية للبلاد التى عرفوها وعن ثروتها المعدنية وإنتاجها الزراعى وعن المراعى بها وطرقها ومسالكها كما لم يفتهم أن يتحدثوا عن السكان وحياتهم الاجتماعية وأنماطها ومراكز الاستقرار البشرى وعلاقاتها بما حولها من الأرض وكانت هذه المعلومات مما أفاد منه الرحالة والرواد الأوربيون فى عصر النهضة ومن الثابت أن أوربا لم تعرف داخل أفريقيا إلا عن طريق الكتابات العربية وظلت كتاباتهم هى المرجع الوحيد عن جغرافية هذه المناطق حتى القرن التاسع عشر ويكفى أن نشير هنا إلى واحد من الجغرافيين العرب هو الحسن بن الوزان « ليو الأفريقى » والذى عاش فترة طويلة فى أوربا وعرف باسم ليو الأفريقى وقد وضع كتاب « وصف أفريقيا » .

الملاحة البحرية :

وقد استمر الرحالة الأوربيون يعتمدون على المصادر الأوربية فى ارتياد ما كان مجهولا لديهم من أرجاء الأرض ويظهر ذلك منذ رحلة « ماركوبولو » الذى استفاد من المعلومات التى استقاها من رسوم المسلمين البحرية والتى استخدم كثيراً من الاعلام الجغرافية فى صيغها الإسلامية العربية والفارسية وكانت معلومات المسلمين عن المحيط الهندى هى الأساس الذى قام عليه تجوال الأوربيين ولولا الملاح العربى « شهاب الدين أحمد بن ماجد » الذى تولى إرشاد « دى جاما » فى المحيط الهندى حتى وصل إلى ساحل الهند لما استطاع البرتغاليون الوصول إلى الهند بهذه السهولة ولقد دهش الملاح البرتغالى من سعة معلومات مرشده فى رصد النجوم وأن ابن ماجد أطلع « دى جاما » على خرائط ملاحية عربية ممتازة موضح عليها خطوط الطول والعرض وقد كان ابن ماجد من أقدم من ألف فى علوم البحار وكتب فيها ثلاثين كتابا أهمها كتاب الفوائد الذى نشره المستشرق (جبرائيل فيران ١٩٢٠ — ١٩٢٣ م) وقد ضم الكتاب أهم ما كتب ابن ماجد وبه معظم المعلومات النظرية والعلمية التى تهم الملاحين فى البحر الأحمر والمحيط الهندى وبحر الصين وقد جمع فيه خبراته الواسعة التى اكتسبها عن هذه البحار وأعماقها وجزرها وموانيها والرياح التى تهب عليها إلى غير ذلك من الأمور التى تهم الملاحين ، ويعد كتاب الفوائد من أهم ما كتب فى أية لغة من اللغات فى العصور الوسطى عن الجغرافية الفلكية وهو يدل على التقدم الكبير الذى بلغه العرب فى فنون البحر والملاحة فى القرن الخامس عشر الميلادى وما كان للعرب أن يقوموا بتلك الأعمال الضخمة التى حفظت لنا الكتب قليلا منها لولا وجود الأجهزة الدقيقة التى اخترعوها أو نقلوها عن غيرهم ثم عدلوا وحسنوا فيها ويأتى فى مقدمة الآلات الإبرة المغناطيسية أو البوصلة والتى قال عنها « جوستاف لوبون » أنها اختراع عربى أصيل من بين الأجهزة التى أخذوها عن الإغريق « الاصطرلاب » وغيرها من الأدوات .

فقد أدخل المسلمين كثيراً من التحسينات على هذه الأدوات وأضافوا إليها أجهزة أخرى من ابتكارهم مثل المزولة الشمسية ، وقد كان المسلمون أعرف

الناس بالنجوم ومطالعها ومغاربها واستخدام مجموعاتها على التعرف على الاتجاهات في عرض البحر ولا تزال الأسماء العربية التي وضعوها هي المستعملة في كتب الملاحة الغربية مع شيء بسيط من التحريف ، وكانت أوربا في العصور الوسطى لا تجمع على رأي بشأن الكرة الأرضية وكرويتها وكان الفكر الأوربي وقد سيطرت عليه جهالة العصور الوسطى غير مستعد لقبول هذه الفكرة في الوقت الذي كان فيه الجغرافيون العرب يجتمعون على هذه الحقيقة فيكتب ابن خرداذبه المتوفى ٨٨١ م أن الأرض مدورة كتدوير الكرة ويقول ابن رسته المتوفى ٩٠٣م أن الله عز وجل وضع الفلك مستديراً كاستدارة الأرض أجوف دوراً والأرض مستديرة أيضاً كالكرة وقد أقام المسلمون الدليل على ما ذهبوا إليه من قول ولو لم يشع العرب نظرية كروية الأرض لما اخطر ببال رحالة مثل « كرستوف كولومبس » أن الاتجاه نحو الغرب يمكن أن يؤدي به إلى الهند ولما كان في استطاعته أن يكشف عن الدنيا الجديدة فالعرب لهم الفضل الكبير في الكشف عن نصف الكرة الغربي ، لما أشاعوا من نظريات مدعمة بالأدلة والبراهين ، وإن كانت هناك بعض الأقوال التي تذكر أن العرب قد اكتشفوا أمريكا قبل أن يكتشفها « كولومبس » بعده قرون ، وقد يكون بعض المسلمين قد فكروا فعلا في ارتياد بحر الظلمات وقد عنى العرب فيما عنوا به من دراسة الأرض وقياس أبعادها وقد تمت هذه المحاولة العربية لقياس محيط الأرض في سهل سنجار بشمال العراق في عهد الخليفة العباس المأمون وقد قام بهذا العمل الجغرافي فيه أولاد موسى بن شاكر .

علم الخرائط :

لقد أدرك المسلمون بفطرتهم السليمة أهمية الخرائط كوسيلة لتوضيح المعلومات الجغرافية وكان محمد بن موسى الخوارزمي من أسبق كتاب المسلمين عناية بهذه الناحية فقد أضاف مجموعة من الخرائط إلى كتاب صورة الأرض والذي يقول عنه المتشرق الإيطالي « نالينو » لا تستطيع أمة غير الأمة الإسلامية في فجر نهضتها أن تنتج مثله ووضع النجي أول أطلس عربي إسلامي ألحقه بكتابه « صور الأقاليم » ، وكان من ثمرات الجهود التي بذلها عصر المأمون هو عمل الخرائط التي

كان يسميها المسعودى الصورة المأمونية وقد اجتمع لوضعها عدد من علماء العصر وصوروا فيها العالم بأفلاكه ونجومه وبره وبحره وغامره ومساكن الأمم والمدن ومع أن المسلمين لم يتقدموا فى فن عمل الخرائط تقدمهم فى وضع المؤلفات الجغرافية فقد كانوا أصحاب الفضل فى الحفاظ على التراث الخرائطى القديم ولقد كانت خريطة الادريس التى وضعها فى (١١٥٤ م) هى الأثر الوحيد الهام فى الكارتوجرافيا قبل القرن الرابع عشر وقد كانت الخرائط العربية أفضل بكثير جداً عن خرائط أوربا المسيحية فى العصور الوسطى .

وخلاصة القول أن الجغرافية الحديثة لم تنشأ نشأة فجائية وإنما تعود جذورها إلى العصور القديمة وكان المسلمون فى العصور الوسطى هم حلقة الوصل بين القديم والحديث فحافظوا على أروع ما فى التراث الجغرافى القديم وأضافوا إليه خلال سبعة قرون من الازدهار الحضارى ماتجمع لديهم من المعرفة الجغرافية عن طريق الرحلات الواسعة والذى كان الرحالة ابن بطوطة وابن جبير من أشهر الرحالة وسجل هؤلاء الرحاله مشاهداتهم فيها بدقه ووضوح .

سادسا : اثر العرب والمسلمون فى فن العمارة الاوربية :

مع انتشار الإسلام الانتشار السريع الواسع فإنه شهد نهضة عمرانية كبرى لم يحدث من قبل نظير لها إذ انبعثت فى فترة وجيزة من الزمن مدن جديدة فقد أنشئت فى العصر الأموى وحدة أكثر من خمسة وعشرين مدينة جديدة من بينها البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وواسط بالإضافة إلى المنشآت الأخرى الكثيرة واختطت فى العهد العباسى مدن عديدة أخرى منها هاشمية الكوفة والمعمورة وبغداد وسامراء فى العراق والعسكر ونيس والقطائع فى مصر والعباسية ورقاده وسوسه ووهران وفاس فى بلاد المغرب واتسعت أيضاً مكة والمدينة ودمشق وحلب وأنطاكية وقرطبة ومئات غيرها من المدن فى بلاد المشرق والمغرب والأندلس ونشطت حركة البناء والعمارة فى هذا المدن جميعاً وبنيت حولها الأسوار والحصون وأقيمت المساجد والدور والقصور والأسواق والحمامات والأربطة وخزانات المياه والبيمارستانات والمدارس ، وازدهرت فى

وقت واحد عواصم الإسلام والعروبة الثلاثة بغداد والقاهرة وقرطبة وصاحب النشاط المعمارى نشاط الحرف والصناعات وتبعته نهضة كبرى وأقبل رجال الفن على إنتاج التحف الثمينة وأضافت العمارة الإسلامية العربية إلى التراث الفنى العالمى نظماً لم تكن معروفة من قبل مثل أنظمة المساجد والأضرحة والمدارس وأدخلت على نظم المساكن والقصور والحمامات والحصون والأسوار أنظمة جديدة جعلت لها فى العصور الإسلامية طابعاً مميزاً وابتكرت العمارة الإسلامية عناصر كثيرة منها أشكال العقود، ابتكرت العمارة الإسلامية كذلك أشكالا جديدة من التيجان تختلف عما كان مألوفاً فى العمارات القديمة وابتكرت فى العصور الإسلامية الصنج المعشقة وظهرت أشكال المحاريب والبوابات واتخذت عنصراً من عناصر الزخرفة .

وانتشرت البوابات البارزة وأنتصبت المآذن والمنارات وازدهر الزخارف المعمارية واتخذت لها خصائص امتازت بها عن سواها من حيث تصميها وإخراجها الفنى واستخدمت الفسيفساء والقراميد والحجارة المختلفة الألوان وكذلك الفنون وكانت لها خصائص تمتاز بدقة الرسوم ودقة الصناعة وخصب الخيالى وظهرت مجموعات إنشائية كاملة رائعة خالدة فى التاريخ الإسلامى مثل منابر المساجد ومثل المجموعات المختلفة من العصور الفاطمية وظهرت أوانى رقيقة الصناعة ، بديعة الزخارف والألوان ومن الزجاج صنعت أوانى أخرى مختلفة الأشكال ومشكوات المساجد ذات الشهرة العالمية ومن المعادن استخدمت الفضة والنحاس فى صناعة الأوانى وظهرت مراكز شهيرة لصناعة المنسوجات وذاعت شهرة السجاد العربى فى دول أوربا وكانت جدران قاعات الاستقبال فى قصور ملوكها وأمرائها تزدان بالأنواع الفاخرة منه بالإضافة إلى هذه الحقائق والابتكارات الفنية ، فقد انطبعت آثار العمارة والزخرفة والتحف الإسلامية بطابع واضح ينطق بوحدة التغيير الفنى مظهراً وجوهراً .

ولقد نشأت العلاقات الفنية بين العرب والمسلمين من جهة وبلاد أوربا من جهة أخرى ، التاريخ حافل بهذه النماذج فقد نشأت هذه العلاقة منذ القرن الثامن الميلادى وازدادت رابطة العلاقات مما يشاهده من عمائر العرب والمسلمين أفواج الحجاج

وهم فى طريقهم إلى بيت الله المقدس من جهة ونشأت علاقات أساسها الرحلات وتبادل السفارات والرسائل والهدايا بين الأمم الإسلامية والأوربية ومن ذلك السفارة المشهورة بين الرشيد وشارلمان وسفارة الأمراء الغربين إلى الخليفة الأندلسى عبد الرحمن الناصر وتسربت هذه العلاقات من جهة أخرى إلى إيطاليا واتصالها بالعرب فى صقلية ومن انتقال المسلمين علماء وعمال إلى أنحاء مختلفة من القارة الأوربية .

ولقد تأثرت العمارة الأوربية فى العصور الوسطى تأثراً بالغاً بالتقاليد المعمارية الإسلامية العربية وكانت أولى المناطق التى ظهرت فيها قوة هذا التأثير فى شمال أسبانيا منذ أوائل القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وفى مقاطعات «ليون» و «قشتالة» و «حليقه» وفى بلاد «قطالونيا» ولقد تأثر سكان هذه الأماكن بالتقاليد المعمارية الإسلامية العربية إذ كانت هذه التقاليد من القوى بحيث فرضت عناصرها على عناصر العمارة الإسلامية قد ابتكرتها وطبقتها فى عمائرها ونشرتها شرقاً وغرباً .

وكانت أول العناصر ظهوراً وأكثرها انتشاراً العقود المنفوخة وقد ظهر العقد المنفوخ فى المسجد الأموى بدمشق عام ٨٧ هـ/٧٠٦ واستخدم بعد ذلك فى المسجد الجامع بالقيروان ١٠٥ هـ /٧٢٣ م واقتنع رجال العمارة الإسلامية بمناعة بنيانه ورشاقة مظهره فبنوه وعمموا استخدامه بحيث أصبح عنصراً مميزاً للعمارة الإسلامية وخاصة فى بلاد المغرب والأندلس واقتبس الأوربيون عنصراً زخرفياً متصلا بالعقد المنفوخ وهو إحاطة هذا العقد بإطار مستطيل وهو عنصراً ابتكرته العمارة الإسلامية وانتشر استعماله فى بلاد المشرق والمغرب وتسرب إلى أوربا وانتشر العقد الثلاثى ، وعلى هذه الصورة الفنية ابتكر هذا العقد فى فرنسا وكان أعم وأوسع وقد اقتبس هذا النوع من الفتحات الثلاثية فى أغلب دول أوربا مما يدل على أن شكل هذا العقد اتخذ بعد اقتباسه من العمارة الإسلامية واستخدم فى مناطق أخرى مع بعض الاختلاف والتطور وهذا معناه أن اقتباسه كان أول الأمر اقتباساً مباشراً من آثار الأندلس ومن المغرب والأندلس انتقلت أشكال العقود المفصصة إلى انجلترا وفرنسا وإيطاليا وغيرها من أجزاء أوربا وانتقل العقد المدبب كذلك

كذلك من العمارة الإسلامية إلى العمارة الأوربية وتطور فن العمارة تطوراً عظيماً وكان العقد المدبب قد نشأ فى العراق وانتقل إلى هذه الأماكن من العمارة الأوربية .

واستخدمت العقود الصماء فى زخرفة الأبواب والواجهات والمحاريب فى العمارة الإسلامية وظهرت فى أشكال متشابكة فى المسجد الجامع بقرطبة وعلى واجهة مسجد طليطلة وانتشر استعمالها فى العمارة الإسلامية وبصفة خاصة فى مآذن الأندلس والمغرب وكذلك انتقل إلى العمارة الانجليزية العقد المتعرج وقد ظهر هذا العقد أول ما ظهر فى العمارة الإسلامية فى قصر العاشق بالعراق عام ٢٦٤ هـ / ٨٧٨ م ثم عم استعماله فى عمارة القاهرة واتخذت العقود الإسلامية أهمية كبرى من عناصر العمارة والزخرفة الأوربية واتخذت القباب الإسلامية طابعاً مميزاً وذات أعظم شأن وأعظم أثراً فى فن العمارة الإسلامية وقد تطورت فكرة القباب العربية فى مسجد الزيتونة ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م ثم تطورت القباب فى قباب قرطبة وبدأت آثار هذا التطور تظهر فى فرنسا وشمال أسبانيا وجنوب إيطاليا وليس هناك شك فى أن العمارة الأوربية فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين اقتبست فكرة القباب الوترية من الأندلس والتى كانت بدورها تطور لفكرة تجزئة الكتلة القبوية المتبعة فى القيروان وتونس منذ القرن التاسع الميلادى وكان هذا الاقتباس الأوربى مصدر نشأة العمارة القوطية ، تلك العمارة التى لها شأن عظيم فى بلاد أوربا بأسرها .

وكان للمآذن الأندلسية وخاصة مأذنة المسجد الجامع بقرطبة التى اختفت الآن معالمها وأيضاً مأذنة مسجد أشبيلة ، أثر بالغ على أبراج الكنائس الأسبانية والأوربية سواء من حيث أشكالها المربعة القاعدة الشاهقة فى الارتفاع وأثرت الشرفات الإسلامية فى أوربا وقد ذكر أحد علماء الآثار الانجليز أن شرفات جدران مسجد ابن طولون بالقاهرة والذى بنى عام ٢٥٦ هـ ٨٧٩ م تعتبر نموذجاً لما اتبع فيما بعد فى تنسيق الشرفات المنقورة القوطية ولم تلبث الشرفات البارزة فوق البوابات أن انتشر استعمالها فى القصور والحصون الفرنسية والانجليزية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر على نطاق واسع .

وفى سياق العمارة الحربية فإن هذه العمارة اشتقت فى البلاد الغربية من العمارة الإسلامية عنصراً ابتكر فى بناء مدينة بغداد وهو المدخل المزور حتى لاينكشف الفناء الداخلى للمدينة عند اجتياز العدو لمدخلها وقد ظهرت هذه الحيلة فى بناء قلعتى «القاهرة» و «حلب» ثم أدخلها الانجليز والفرنسيين على عمارة حصونهم .

ولقد امتاز الفن الإسلامى العربى فيما امتاز بالعناية بالزخارف واتخذت هذه الزخارف خصائص انفردت بها دون سائر الفنون الأخرى سواء من حيث تصميمها أو من حيث إخراجها الفنى أو من حيث موضوعاتها وأساليبها وقد اعترف أحد علماء الآثار المستشرقين بأنه من الواضح أن العمارة فى العالم الأوربى مدينة للعرب والمسلمين بدين كبير من حيث تأثير العمارة الإسلامية على العمارة الأوربية فهو واضح ملموس فى كل ماذكرناه من اقتباسات أخذها الأوربيون عن المسلمين وتأثيره المباشر يؤكد اتصال الحلقات التاريخية ولقد اقتنع علماء الآثار المستشرقين بعبقرية المعماريين المسلمين والعرب وأشاروا بابتكاراتهم واعترفوا بآثارها فى النهضة الأوربية كذلك اعترفوا بعبقرية الفنان المسلم العربى فى الصناعات الفنية والزخرفية سواء كانت تلك الصناعات من ابتكاراته أم أنها كانت معروفة فى الحضارات القديمة فحذق العمال المسلمون صناعاتها وعرفوا الغرب المسيحى الأوربى أساليبها .

ولقد انتشرت التحف الإسلامية العربية فى أسواق أوربا فى العصور الوسطى ولقيت فيها رواجا كبيراً وأقبل على شرائها الملوك والأمراء والأثرياء ، بل رجال الدين أيضاً ، فأثارت الغيرة لدى الصناع الأوربيين وحاولوا ما وسعهم تفكيرهم تقليدها سواء من حيث أساليب الصناعة أو طرز الزخرفة وقد فتح استيراد أوربا للتحف الإسلامية الطريق أمامهم لتطور الفنون والصناعات الأوربية تطوراً كان من نتيجته نموها نمواً بارزاً بحيث أصبح إنتاج التحف الفنية ضرورة من ضروريات عصر النهضة الأوربية ولعل أبرز مثل لذلك هو نابغة النهضة « ليوناردو دافنشى » فقد أقبل على دراسة الزخرفة الإسلامية إقبالا لا يبزه من الاعلى مدى الأهمية التى كانت تلك الزخرفة تكسبه لها فى ذلك العصر وفى السكراسات التى تركها ليوناردو دافنشى نماذج عديدة من الزخارف الإسلامية .

وقد انتشرت بعد ذلك مراجع النماذج الزخرفية بفضل الطباعة ومصدر هذه الزخارف هو أسلوب الزخارف العربية وهو ابتكار إسلامى ظهر أول ماظهر فى الزخرفة الفاطمية وفى مسجد الأزهر فى منتصف القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) والخط الكوفى نوع آخر من الزخارف العربية ، غير أن التعلق بالزخرفة الكوفية لم يقتصر على رجال النحت والعمارة فى أوربا بل تعداهم إلى غيرهم من رجال الفن ولعل أغرب ما حدث من تأثيرات الخط الكوفى كان حافزاً لتطور الحروف اللاتينية ، فاتخذت حلية زخرفية وصورت على غرار الحروف الكوفية ثم اختلطت بعد ذلك الكتابة اللاتينية فى العصر القوطى بالكتابة الكوفية وأصبح الناس يظنون أنها كتابة واحدة وظل التمييز فى أوربا بينها سراً دقيقاً طوال خمسمائة سنة .

وفى الخزف والزجاج كان للخزف فى الفنون الإسلامية مكانة ممتازة وكذلك اشتهرت تلك الفنون بصناعة الزجاج وكان إنتاجها يثير الإعجاب فى أوربا وخاصة الخزف ذو البريق المعدنى الذى امتازت به صناعة الخزف العربى وقد استمرت صناعة هذا النوع من الخزف قائمة فى أسبانيا بعد العصور الإسلامية ، بل إنه اكتسب شهرة جعلت كبار الأمراء فى إيطاليا وفرنسا يرصون هذه المصانع بصنع ألوان خاصة بهم تحمل أسماءهم وشعاراتهم .

ولقد قلد الخزافون الإيطاليون صناعة الخزف المعروف بطريقة الرسم بالحفر ، أما التحف الزجاجية فقد كانت تستجلب من مصر ودمشق لقصور الملوك والأمراء فى أوربا بل كانت تصنع خصيصاً لهم، وبدأ رجال الفن الايطالى منذ القرن الثالث عشر وخاصة فى مدينة البندقية التأثر بتأثير الأساليب المصرية ، والشامية وسرعان ما أتقن هؤلاء الصناع صناعة الزجاج وانتشرت طريقة الصناعة الفنية هذه إلى مراكز أوربية أخرى فأخذت تنتج الأوانى الزجاجية التى يظهر أثر الفن الإسلامى عليها واضحاً .

ومن ناحية المعادن فقد أحرز الصناع المسلمون تقدماً ملحوظاً فى صناعة المعادن وبلغت مهارتهم ودقتهم فيها مبلغاً فائقاً وأنتجوا منها مختلف التحف

ونقشوا مسطحاتها بزخارف رائعة الجمال ، هندسية ونباتية وحيوانية وآدمية وخطية وكانت التحف الإسلامية المعدنية تلقى رواجا كبيراً فى بلاطات الملوك والأمراء الأوربيين وكان من نتائج انتشارها أن ظهرت بمدينة البندقية مصانع للتحف النحاسية واتخذوا فى صناعاتها من التحف الاسلامية نماذج استوحوا منها أساليب صناعاتهم وأشكالها واتبع الفن الأوربى أسلوبا مماثلا لأسلوب التكفيت الاسلامى .

وأما عن النسيج والسجاد العربى والاسلامى فقد ذاعت فى أوربا فى العصور الوسطى شهرة هذه المنسوجات ودور الطراز التى كانت منتشرة فى البلاد الاسلامية العربية والتى كانت تنتج من المنسوجات أنواعاً فاخرة ولقد أخذت مصانع النسيج فى أوربا تعمل على تقليد المنسوجات الحريرية الفاخرة وكان هذا التقليد نتيجة مصادر ثلاثة أولها مصدر مباشر نتيجة استيراد الملوك والأمراء للأقمشة من الشرق الاسلامى ، والثانى ناشىء من استمرار المراكز الصناعية الاسلامية فى إنتاجها فترة طويلة من الزمن وفقاً للتقاليد الاسلامية ، وثالثها تأثير المصانع البيزنطية بالأساليب الاسلامية وإنتاجها أقمشة تحمل الطابع العربى .

ومن الأمثلة البارزة على التأثيرات العربية فى مجال النسيج تلك العباءة التى نسجت فى صقلية للملك روجر الثانى ، عام ٥٢٨هـ/١١٣٤م ولقد قلد الايطاليون النسيج الحريرى الذى كانت تنتجه المصانع الاسلامية فى صقلية وأصبحت لهذه الصناعة مراكز هامة فى إيطاليا وبلغت صناعة الأقمشة الحريرية الأوربية المحلاة بزخارف إسلامية حداً كبيراً من إتقان التقليد بحيث كان يتعذر التفرقة بين الأقمشة المستوردة من البلاد الاسلامية وتلك التى تصنع فى إيطاليا وكانت معظم هذه الأقمشة محلاة بزخارف موشاة بخيوط ذهبية وقد ظلت شهرة هذه المنسوجات الثمينة قائمة سنوات طويلة حتى أن مصنعاً للنسيج فى انجلترا أخرج قطعاً من القطيفة الموشاة بالذهب تحمل الطابعين الايطالى والعربى معاً .

وكذلك تأثرت صناعة السجاد الأوربى من صناعة السجاد الاسلامى وكانت السجاد التركى والفارسى تملأ القصور الأوربية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر

وكان السجاد الاسلامى معروفاً من قبل ذلك بمدة طويلة فى إيطاليا وفرنسا وألمانيا وهولندا وكان الصناع الأوربيون يقلدون كذلك نسيج السجاد الفارسى وما زالوا يقلدونه حتى اليوم وأصبحت المصانع الألمانية تنتج السجاد على نطاق واسع تقليداً مطابقاً لمظاهره الأصلية الاسلامية الشرقية .

التجليد :

امتدت التأثيرات الفنية الاسلامية فى فن تجليد الكتب ومن المعروف والثابت تاريخيا وحقائقيا أنه يرجع إلى المسلمين الفضل الأول والأخير فى إدخال صناعة الورق إلى أوربا وكان لهم أيضاً فضل توجيه العناية إلى تجليد وزخرفة الكتب ومن المؤكد أن الأوربيين أخذوا عن المسلمين والعرب هذه الصناعة وكذلك تزويد جلدة الكتاب بلسان لحماية الأطراف الخارجية المخطوط وكذلك أخذ الأوربيون عن المسلمين طريقة تذهيب المجلدات وشاع استخدامها منذ القرن الخامس عشر الميلادى وكذلك كان بالبندقية مركز عام للتجليد وكان القائمون بالعمل فيه صناعا مسلمين وإليهم يرجع الفضل فى إحياء طرق التجليد الإسلامية واستمرارها فى أوربا .

التصوير :

لم يكن لفن التصوير الإسلامى تأثيراً كبيراً على فن التصوير الأوربى إلا أن بعض المصورين الأوربيين ، قد نقل بعض الصور الشرقية فى لوحاتهم فقد رسموا فى صورهم سجاداً إسلاميا ، غير أن الأثر الإسلامى الواضح فى التصوير الأوربى كان فى تشكيل الموضوعات الزخرفية نقلا عن مصادرها العربية أو صور أشخاص بملابس عربية ، ومن هنا فإن أثر العرب والمسلمين فى تطور العمارة والفنون الأوربية كان كبير جداً وبلغ نواحى كثيرة واستمر قرونا طويلة .

وقد امتد هذا الأثر إلى معظم بلاد أوربا الغربية ، بل أنه امتد كذلك إلى مراكز الفن البيزنطى فى شرق أوربا ، وما زالت روائع العمارة والفنون الإسلامية المنتشرة فى أنحاء العالم الشرقى والغربى تجتذب أنظار الأوربيين .

سادساً : اثر العرب والمسلمين فى الموسيقى :

تمتد جذور الموسيقى العربية إلى آلاف السنين بل إن الموسيقى العربية ترجع بدايتها إلى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد ولم يكن افتتان العرب فى الموسيقى مقصوراً على ضبط فنون الغناء أو العزف أو التعرف ، والتعرف إلى أصول الموسيقى وقواعدها واستكمال الآلات الموسيقية وتطور صناعاتها ولقد نبغ بعض الفنانين العرب فى الغناء والطرب وفن الموسيقى ولما سمعت أوربا وشاهدت ذلك الرقى الحضارى فى قصور الخلفاء والأمراء فى بغداد والأندلس وصقلية فإنها أرسلت إلى حواضر البلاد العربية والإسلامية بالطلاب الذين لهم ميول فنية فى الغناء والطرب وفن الموسيقى لكى يتعلموا فن الموسيقى من معاهد المسلمين وجامعاتها ولكى يتذوقوا الفنون والعلوم التى وفد طلاب أوربا لدراستها وترجمة كتبها فتعلمت أوربا الكثير من كتب العرب فى الموسيقى كمؤلفات الفارابى وإخوان الصفا ، وابن سينا وصفى الدين عبد المؤمن الارموى وابن ماجه وغيرهم .

وقد ذكر المؤرخون أن هذه البعثات الأوربية التى وفدت إلى حواضر العالم العربى الاسلامى قد بلغ أفرادها عام ٢٧٠ هـ أكثر من ٧٠٠ طالب من مختلف مقاطعات أسبانيا وألمانيا وانجلترا وفرنسا وغيرها من البلاد الأوربية ، وذلك فى عهد عبد الرحمن الأوسط وتتابعت هذه البعثات الطلابية من أوربا إلى مدرسة تدريس الموسيقى والفن والتى كانت مقامة فى قرطبة والتى كانت تدرس بها أصول الموسيقى والغناء والعزف بمختلف الآلات وفنون الشعر والرقص وغيرها من المدارس واتسع أمام أفرادها المجال لتعلم هذه الفنون الإسلامية الراقية .

ومن ثم عندما يعودون إلى بلادهم الأوربية فإنهم ينقلون إليها من علوم الموسيقى العربية وفنونها ما بعد اللبنات الأولى فى بناء النهضة الفنية فى أوربا وربما تعتبر تلك العلوم الموسيقية التى تلقاها هؤلاء الطلاب الشعلة التى أضاءت للفن الموسيقى الأوربى طريقه إلى عصر النهضة وظل اتصال أوربا بالمدنيات العربية الإسلامية وثيقا نتيجة لعوامل أخرى سياسية وثقافية وبخاصة بعد أن تتابعت الفتوحات الإسلامية وتلاحقت حتى استقرت أقدام المسلمين فوق جهات أوربية متعددة فى شرق القارة وغربها وجنوبها .

وانتظمت حركة القوافل التجارية بين المسلمين وبين مختلف البلدان الأوربية وكانت كل هذه العوامل قد وثقت الصلة بين المسلمين وسائر البلاد الأوربية وبهرت المدنية الاسلامية أوربا ومثقفيها وأصبحت اللغة العربية لغة الثقافة والعلوم فى أوربا وأصبح الشباب الأوربى يردد الأغانى العربية فى نواديهم ومجتمعاتهم ومن ثم عرفت أوربا لأول مرة مظهر الموسيقيين المتجولين وهم يعرضون أغانيهم ورقصاتهم الشعبية وعرفت أوربا ألوانا جديدة من الغناء الشعبى والتى ظهرت فى جنوب فرنسا وألمانيا وإيطاليا .

وكذلك فإن أوربا تدين للمسلمين فى كثيراً من آلاتها الموسيقية فقد انتشرت منذ القرن التاسع الميلادى فى ممالك أوربا ولاسيما فى البلاد الغربية من القارة الأوربية وأيضاً فى جنوبها الآلات الموسيقية العربية مثل العود ، وما كاد العود ينتقل من الأندلس إلى سويسرا حتى أصبح فى القرن الثانى عشر الميلادى من آلاتها الموسيقية الشائعة ، كما لاقى رواجا كبيراً فى ألمانيا وفى إيطاليا ثم فى بقية البلاد الأوربية .

وكذلك فإن أوربا عن طريق انتقال العود إليها سرعان ما امتدت إلى التدوين الجدولى وهكذا عرفت أوربا عن طريق العرب ألواناً مختلفة من التدوين الجدولى للعود وكان من أهمها هذه الأنواع الثلاثة التى استعملتها فرنسا وألمانيا وإيطاليا وكان هذا التدوين الجدولى البداية التى أضاءت الطريق لأوربا لاستكمال التدوين التى تحدد به النغمات وتضبط الموسيقى زمنها وإيقاعها ، وظل استعمال العود منتشراً فى أوربا فى جميع الأندية والمجتمعات والمنازل حتى بداية القرن الثامن عشر حيث أثر على ذيوعه انتشار آلة البيانو ، وكان أول تعرف أوربا بالآلات الوترية ذات القوس حوالى القرن الحادى عشر حين انتقل إليها الرباب العربى .

وقد ظهرت أقدم آلات الرباب عند العرب ثم انتقلت تلك الآلة مع العرب إلى الأندلس ومن ذلك الحين عرفت أوربا الآلات الوترية ذات القوس وبدأت تظهر فيها وبخاصة فى المناطق المتاخمة للأندلس وفى فرنسا وألمانيا وإيطاليا فقد

صنع الفرنسيون آلة تماثل الرباب العربية ونجم عن انتقال تلك الآلات العربية إلى أوربا ما لا يقل أهمية عن تعرفهم إلى تلك الآلات فقد أفادت أوربا بما صنعه العرب من كل الآلات التى صنعوها .

وبذلك فإن المسلمين قدموا لأوربا فن الموسيقى وآلاتها وفن الرقص والغناء والطرب الشيء الكثير الذى استوعبه هؤلاء الأوربيين وأبدعوا فيه ، ومن ثم فإنه يمكن القول أن الإسلام والمسلمين قدموا لأوربا خلاصة ماملكت أيديهم من كل فروع المعرفة الإنسانية التى كانت معروفة وشائعة فى العصور الوسطى والتى بدونها ما استطاعت أوربا أن تصل إلى ما وصلت إليه من تقدم حضارى وثقافى وعلمى

خاتمة

من تلك الدراسة التى نقدمها للقارىء الكريم يتضح لنا أن العرب سكان الجزيرة العربية ما أن اجتمعت كلمتهم على شهادة لا إله إلا الله ، محمد رسول الله وتوحدت جزيرتهم العربية تحت راية التوحيد راية لا إله إلا الله محمد رسول الله حتى تركوا كل الخلافات القبيلية والمشاحنات الأسرية ونبذوا كل هذه الأمور وراء ظهورهم ، بذلك ظهرت للعالم دولة الإسلام الأولى التى اتخذت من المدينة المنورة عاصمة لها وبعد أن أقام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم دعائم دولة قوية إسلامية ، ثم ما أن استقرت الأمور فى الدولة الإسلامية الفتية الناشئة حتى خرج المسلمون من جزيرتهم العربية يرفعون راية الإسلام ، راية لا إله إلا الله محمد رسول الله ، خفاقة عالية فوق كل الأرض المعمورة وفى كل مكان يقطنه بشر وذلك لكى يفشروا رسالتهم الإسلامية الخالدة وذلك لأن هدفهم الأول والوحيد هو نشر تلك الرسالة ، ولم تكن لهم أية أهداف أخرى كما حاول بعض المؤرخين من رجال الغرب المسيحى أن يبين أن العرب فى زحفهم الكاسح من الجزيرة العربية كانت لهم عدة أهداف منها أهداف سياسية واقتصادية ودينية وقول هؤلاء مردود عليهم لأن الهدف الأسمى والأول والأخير هو الجهاد فى سبيل نشر الإسلام فى شتى بقاع الأرض المعمورة .

ولذا خرجت الموجات الإسلامية المؤمنة برسالة الخالق الأحد ، العاملة أقصى جهدها على نشرها لكى تجتاح أراضى الدولتين الكبيرتين فى ذلك الوقت واللتين كانتا تسيطران على مجريات الأمور فى العالم القديم (فارس ، بيزنطة) واستطاعت الموجة الإسلامية أن تكتسح أمامها كل أوثان الشرك فى فارس وأجزاء كبيرة من الدولة البيزنطية وانطوت تحت لواء الإسلام كل من مصر والشام والشمال الافريقى وخضعت شواطىء البحر الأبيض الجنوبية والشرقية لمد الإسلامى ودخل أهالى تلك البلاد فى الدين الإسلامى الحنيف أفواجا طوعا لا كرها وخرجوا يشاركون إخوانهم أهل الجزيرة فى نشر رسالة الحق والصدق والبقاء .

ولم يكن انطواء هذه الأقطار تحت الراية الإسلامية إلا مقدمة للزحف الإسلامى إلى بقية الأجزاء الأخرى من العالم القديم والمعروف فى ذلك الوقت بقاراته الثلاثة آسيا وأفريقيا وأوروبا ولما كان الإسلام قد بسط لوائه على أجزاء كبيرة من قارتى آسيا وأفريقيا فكان لابد أن يتجه الإسلام والمسلمون بأنظارهم صوب القارة الأوربية لاطوائها فى ظلال القرآن وتحت راية الإسلام .

ويذكر المؤرخون أن الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه ، كان هو أول واضع لفكرة غزو القارة الأوربية ونشر الإسلام بها إذ حين جاءته البشائر بفوز الجيوش الإسلامية فى شمال أفريقيا على جيوش البيزنطيين ، فإنه ندب القائدين عبد الله بن عبد القيس وعبد الله بن نافع وكانا على الأسطول الإسلامى وأمرهما بالسير إلى الأندلس وكتب لهما وصية سياسية تلك الوصية التى يقول رضى الله عنها أن القسطنطينية تفتح من قبل الأندلس وإنكم وإن فتحتم ما أنتم بسبيله تكونون شركاء لمن يفتح القسطنطينية فى الأجر ، وأن أول أمير شرع فى إعداد الوسائل والمعدات لتنفيذ غزو أوربا ، هو القائد حسان بن النعمان ، بعد أن دان له شمال القارة الافريقية بالسمع والطاعة .

وما أن آلت الأمور فى الدولة الإسلامية إلى معاوية بن سفيان والذى نقل مقر الخلافة الإسلامية من المدينة المنورة إلى دمشق حتى وضع نصب عينيه ضرورة فتح أوربا وكان شرق أوربا هو الأقرب إلى دمشق من غربها فكانت فكرة غزو القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية والتى ولن استطاع المسلمون فتحها بعد ذلك فإنهم سوف ينساحون فى سهول أوربا الشرقية الواسعة ليمدوا الإسلام إلى كل تلك الأجزاء من القارة الأوربية .

وكان معاوية بن أبى سفيان قد خبر قوة الدولة البيزنطية فى عدة معارك سواء ما كان منها براً أو بحراً والتى كانت معركة ذات الصوارى أول نصر بحرى إسلامى على قوى الروم البحرية والتى استطاع الأسطول الإسلامى الناشىء أن يلقن الروم درساً لن ينسى فى فن القتال البحرى الإسلامى وأن يعرفهم قوة الأسطول الإسلامى البحرية وأنه منذ ذلك الوقت انكمش الأسطول البيزنطى

فى موانيه وبدأ يعمل للأسطول الإسلامى عند تحركه فى البحر المتوسط ألف حساب .

المهم كانت فكرة غزو القسطنطينية باعتبارها المفتاح الموصل إلى بوابة أوربا من الشرق فكانت فكرة غزوها فكرة صائبة وجهز معاوية لتلك الغزوة كل ما يلزمها من رجال وعتاد ومؤن وتحركت القوات الإسلامية لدرء الخطر البيزنطى لحصارها واستمر حصارها فترة سبع سنوات ولكن وفاة معاوية ابن أبى سفيان حالت دون إتمام فتح المدينة البيزنطية ، لذا فإن المسلمون رأوا أنه من الضرورى الاتجاه إلى فتح أوربا من طرفها الغربى (الأندلس) بعد أن وقفت عدة مصاعب دون فتحها من الشرق وكان الاتجاه إلى غزو الأندلس والوصول إلى دمشق عن طريق روما والقسطنطينية بعد أن يخضع المسلمون كل أوربا للمد الإسلامى وهم فى طريقهم من الأندلس إلى دمشق .

ومن ثم فقد تم فتح الأندلس على يد موسى بن نصير وطارق بن زياد وما أن استقرت الأمور فى الأندلس واستتب الأمن والنظام بعد القضاء على الجيوب الشمالية التى كانت لا تزال تقاوم المد الإسلامى فى شبه جزيرة أسبيريا ، حتى بدأ موسى بن نصير يفكر ويستعد للزحف بقواته شمالا عبر أراضى القارة الأوربية والوصول إلى دمشق عاصمة الخلافة الأموية لفتح القسطنطينية من جهة الغرب ، ومن ثم فإنه بدأ يخترق جبال البرانس الفاصلة بين دولة القوط التى قوضها المد الإسلامى فى الأندلس وبين دولة الفرنجة المترامية الأطراف وذلك لدرء الخطر الذى بدأ يتهدد الدولة الإسلامية الناشئة فى الأندلس ولإقامة حكم إسلامى فى فرنسا والقضاء على دولة الفرنجة وتحقيق الحلم الكبير لموسى بن نصير فى الوصول إلى دمشق بعد أن تتم له السيطرة على كل أوربا فى كل طريق زحفه ، ولكن من أجل هذه الفكرة والمشروع الإسلامى الجرىء فإن الخليفة الوليد بن عبد الملك استدعى قائده موسى بن نصير ومعه طارق بن زياد وذلك لخوفه من أن يلعب النصر السريع الذى أحرزه موسى بن نصير فى الأندلس برأسه فيغرر بالمسلمين فى أراضى أوربا الواسعة ويقودهم فى طريق لم يسلكه فاتح من قبل ، وأنه لولا تردد الخلافة الأموية وتردد خلفائها لاستطاع موسى بن نصير أن ينفذ مشروعه

الكبير فى اختراق أوربا من الغرب إلى الشرق والوصول إلى دمشق عن طريق روما والقسطنطينية وكان من المرجح فى ذلك الوقت أن تلقى النصرانية ضربتها القاضية على أيدى المسلمين وذلك لأن الظروف السياسية فى أوربا كانت مساعدة على اكتساح امبراطورية الفرنجة ونشر رسالة الإسلام الخالدة بها .

وعلى الرغم من توقف المد الاسلامى فى عهد موسى بن نصير وابنه عبد العزيز فى جنوب فرنسا ، إلا أن إتمام غزو كل أوربا كان فكرة تسيطر على أذهان القادة المسلمين فى الأندلس ، ومن ثم توالت الغزوات فى أراضى فرنسا غزوة تلحقها غزوة حتى وقعت معركة بلاط الشهداء بين القائد المسلم الشجاع عبدالرحمن الغافقى وبين شارل مارتل ومن وراءه قوى أوربا الغربية كلها وتوقف المد الاسلامى شمالا عند أبواب مدينة بواتيه .

وكان المسلمون قد خططوا أيضاً بعد أن تمكنوا من الأندلس على ضرورة فتح القسطنطينية للتقدم غرباً وتقوم قوات الأندلس بالتقدم فى أوربا شرقاً ، فأرسل سليمان بن عبدالملك الحملة الإسلامية الثانية لغزو مدينة القسطنطينية ورغم الحشد الاسلامى الكبير إلا أن هناك عوامل خارجة عن إرادة المسلمين حالت دون إتمام فتح المدينة وبسط لواء الاسلام فوق أرجائها .

ولكن الأمور فى العالم الاسلامى لم تكن على خير ما يرام ، إذ حدثت بعض الانقسامات الداخلية والخلافات الأسرية والتى ساعدت على سقوط الدولة الأموية وما تبع ذلك من انقسام بين الأسرة الاسلامية الواحدة وقيام الخلافة العباسية على أنقاض الخلافة الأموية وانتقال مقر الخلافة من دمشق إلى بغداد ، ولقد أولى الخلفاء العباسيين جل اهتمامهم لنشر الاسلام فى آسيا مع عدم إهمالهم أوربا ، وإن كان فكرهم لا زال يمتد لفتح القسطنطينية فقط وذلك لقيام الدولة الأموية فى الأندلس على الطرف الغربى لدولة الاسلام .

ومع قيام الدولة الأموية فى الأندلس وسيطرة عبد الرحمن الداخل على مقاليد الأمور فى تلك البلاد الواسعة البعيدة عن مقر الخلافة العباسية فى العراق ، فان ذلك قد أوجد انقساماً حاداً فى الدوله الاسلامية ولقد ساعد هذا الانقسام

الذى حدث فى العالم الاسلامى بين الأمويين والعباسيين على إعاقة حركة المد الاسلامى فى أوربا ، مع العلم بأن الظروف السياسية فى العالم الاسلامى — قيام الدولة العباسية — كانت مهيأة لنشر راية لا إله إلا الله ، محمد رسول الله فى باقى الأقطار الأوربية التى لم تكن قد وصلتها تلك الراية .

ورغم انقسام العالم الاسلامى وقيام دويلات إسلامية صغيرة فى مصر وشمال أفريقيا ، إلا أن حكام تونس من بنى الأغلب والذين انفصلوا عن الدولة العباسية كان لهم دور هام ونشاط بارز وفعال فى سبيل الدعوة للاسلام ونشر رسالته فى أوربا ، إذ أننا نجد أن بنى الأغلب بعد أن توطد لهم السلطان واستقام لهم الأمر فى تونس ، قد عقدوا العزم على مواصلة الجهاد فى سبيل رفع راية الإسلام خفاقة عالية ، ونصب ألوية الاسلام والعروبة عالية فوق الأراضى الأوربية .

وكان أن تم لبنى الأغلب غزو صقلية ومالطة وجنوب إيطاليا وتوطيد دعائم الإسلام فى هذه البلاد التى أصبحت جزء من العالم الإسلامى العريض بعد أن توطدت دعائم السيادة الإسلامية ، كذلك فقد استمر خروج الحملات البحرية الإسلامية من الشواطىء التونسية غازية فى سبيل الله وفى سبيل نصرة دينه الحنيف .

ومن هنا فإنه يمكن القول بأن حكام تونس من بنى الأغلب الأشاوش كان لهم نصيب موفور فى نشر عقيدة الإسلام فى أوربا وكانت خطتهم الوصول بالإسلام إلى الشمال أكثر منه بعد أن استقر فى جنوب القارة ، إذ أنهم عملوا ما وسعهم الجهد والعمل من أجل نشر الإسلام فى تلك الأرجاء الواسعة من القارة الأوربية .

ولكن الظروف السياسية فى شمال أفريقيا قد شهدت نوعاً من التغيير فى نظم الحكم والدولة ، إذ قامت فى تلك الأنحاء الدولة العبيدية الشيعية الفاطمية فى مدينة المهدية ، واستطاعت القضاء على دولة بنى الأغلب التى كان لها دور كبير لا ينكره أحد فى نشر الرسالة الخالدة فى أوربا ، وإنه لولا هذا التغيير السياسى الذى طرأ فى شمال القارة الافريقية لتغيرت خريطة أوربا السياسية ولتوطدت دعائم الإسلام فى كثيراً من البلاد الأوربية ، ذلك لأننا نلاحظ من خلال الوقائع

التاريخية أنه ما أن استقرت الأمور فى جزيرة صقلية حتى بدأ التفكير فى غزو إيطاليا وتم لهم ما أرادوا إذ استطاعت قوات الأغالبة بمساعدة القوى البحرية الإسلامية لدولة كريت الاسلامية أن تضع أقدامها على أرض البر الكبير (إيطاليا) لكى تنطلق منها شمالا لغزو باقى أوربا .

كذلك فإن الدولة الاسلامية فى الأندلس بعد أن استقرت أوضاعها عملت على نشر الاسلام فى أوربا شمالا فأرسل عبد الرحمن الداخل حملة إسلامية إلى فرنسا لمساعدة المسلمين الذين كانوا لا زالوا يسيطرون على كثيراً من الأنحاء فى جنوب فرنسا ولكن هناك ظروفا حالت دون عبور تلك الحملة لجبال البرانس ، وهذا يؤكد عزم الدولة الأموية على نشر الاسلام فى أوربا ، كذلك فإن الأمويين حكام الأندلس هم الذين شجعوا المجاهدين من أهل الأندلس بعد أن مدوا لهم يد المساعدة من إقامة الدولة العربية فى سويسرا والتى قامت على أجزاء من الإمارات المسيحية المجاورة واعترفت بها مملكة « لومبرديا » فى شمال إيطاليا وعقدت معها المحالفات بعد أن رأت أن الاسلام يهدد كيانها ولا سيما أن نفوذها قد امتد إلى حدود ألمانيا والنمسا إلا أنه لولا المساعدات التى قدمها حكام الأندلس سواء من الرجال والعتاد والسلاح والسفن لما استطاع المسلمون أن يوطدوا نفوذهم ويمدوا حدودهم على تلك الاقصاع من القارة الأوربية .

وقد تكون تلك العلاقات والصلات القوية التى ربطت بين دولة الفرنجة فى فرنسا وشمال أوربا وبين الخلافة العباسية فى بغداد ، تلك العلاقات التى قامت بين شارلمان امبراطور الفرنجة والخليفة هارون الرشيد قد حدت من حركة القوى الاسلامية فى الأندلس وجنوب إيطاليا وجنوب فرنسا من الانطلاق بالمد الاسلامى من جديد فى سهول أوربا الشمالية .

كذلك قيام ثلاث خلافات إسلامية فى وقت واحد فى العالم الاسلامى فالخلافة الاموية فى الأندلس (قرطبة) والخلافة الفاطمية فى مصر وشمال أفريقيه وبلاد الشام والخلافة العباسية فى بغداد ، وما ترتب على ذلك من انقسام خطير فى صف الوحدة الاسلامية ومناصبة بعضهم البعض العداء فالخلافة الفاطمية كانت

تناصب الخلافة العباسية العداء ، والخلافة الأموية تناصب الخلافة العباسية العداء أيضاً والخلافة الفاطمية تناصب الخلافة الأموية العداء ، وأيضاً الخلافة الأموية تناصب كلتاهما العداء .

وقد أدى هذا الانقسام فى العالم الاسلامى إلى عدم التركيز على إتمام الغزو الاسلامى والجهاد لاتمام غزو الجزء الباقى من البلاد فى القارة الأوربية ، بل إن هذا الانقسام أدى إلى ضياع الأراضى العربية الاسلامية فى أوربا من أيدى المسلمين ونفضت على كل الآمال المتعلقة فى سبيل نشر الاسلام وإخضاع القارة الأوربية للمد الاسلامى .

ومع كل هذا فإن الاسلام والمسلمين وطدوا نفوذهم وأقاموا دولتهم الإسلامية فترة من الزمن فى فرنسا وسويسرا وجنوب إيطاليا وفى جزر البحر المتوسط كلها كقبرص ورودس وكريت وصقلية ومالطة وسردنية وكورسيكا وجزر البليار ، وذلك بعد أن أصبح البحر الأبيض المتوسط بحيرة عربية إسلامية تخضع للنفوذ الإسلامى بعد أن سيطرت البحرية الإسلامية على هذا البحر من جميع جوانبه فترة من الزمن تزيد عن ثلاثة قرون كانت فيها البحرية الإسلامية هى صاحبة الكلمة العليا والسيادة فى ذلك البحر .

كذلك فإن عدم سيطرة المسلمين على مدخل أوربا الشرقى « القسطنطينية » فإن ذلك لم يحل دون وصول الرسالة الإسلامية إلى شرق القارة الأوربية ، إذ نجد أن الإسلام قد توطد وقويت دعائمه وازداد نفوذه فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) فى كل بلاد الصقالبة « بلغاريا » التى كانت تشمل على جزء كبير من شرق أوربا وأيضاً فإن الإسلام امتد من بلغاريا إلى بلاد المجر وأصبحت هذه البلاد الواقعة فى شرق أوربا بلاد إسلامية انطوت تحت راية لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، وارتبطت بالعالم الإسلامى بروابط قوية وصلات وثيقة ذلك لأنها اجتمعت مثل غيرها من البلاد الأوربية الإسلامية على كلمة التوحيد .

هذا من ناحية انتشار الاسلام فى القارة الأوربية والظروف التى صاحبت ذلك المد الاسلامى القوى فى تلك الأرجاء من القارة الأوربية سواء فى طرفها الغربى والأوسط والشرقى وما هى المراحل التى مر بها ذلك التوسع الاسلامى ،

وما هى الظروف التى عاقت حركة المد الاسلامى من الوصول بالاسلام إلى كل بلاد القارة الأوربية .

أما عن الاسلام ودور الثقافة العربية الاسلامية فى أوربا فإن أى دارس للتاريخ الاسلامى وحركة انتشار الاسلام فى العالم القديم وأى منصف للحقائق التاريخية فإنه لايستطيع أن ينكر دور الاسلام وفضل الاسلام والعرب والمسلمين إيصال الحضارة الاسلامية وثقافتها الراقية إلى دول القارة الأوربية ، إذ أنه لولا مآثر الاسلام العلمية والحضارية ونشر المسلمون لذلك التراث الاسلامى الراقى المتقدم والمتطور إلى تلك الأجزاء من القارة الأوربية والتى انطوت تحت راية الاسلام وإلى الأجزاء التى اتصلت بالحضارة الاسلامية فى أوربا أن تصل إلى ما وصلت إليه من تقدم حضارى ورقى تزهو به اليوم .

إذ من الثابت تاريخياً والمؤكد بالحقائق والأدلة الدامغة أن الاسلام والمسلمون عندما دخلوا أوربا كانت شعوب أوربا فى كل أقطارها لا تزال تعيش فى مجاهل القرون الوسطى وتعيش عصور الظلام ويسيطر على تلك الشعوب الجهل والهمجية والمرض والفقر وتنتشر بينهم الأوبئة والجرائم وأعمال العصابات ، ويعترف بذلك أحد كتاب الغرب فيقول إن الذى أعاق المسلمون عن التقدم فى إيطاليا ، تلك الحياة البدائية المتوحشة التى كان يحياها شعب ذلك الإقليم الأوربى وانتشار المستنقعات حول القرى وما صاحب ذلك من انتشار الأمراض والأوبئة الفتاكة ولم تكن تلك الشعوب قد بدأت تتأثر بعد بأنوار الحضارة الاسلامية .

ولكن وصول الاسلام وماصاحب ذلك من تقدم حضارى وثقافى وعمرانى للأجزاء التى انطوت تحت لواء الاسلام، جعل الشعوب الغربية تصحوا من سباتها وتهب من غفوتها على أضواء الحضارة الاسلامية العربية التى كانت سيدة وأستاذة الحضارات العالمية طوال ثلاثة قرون متواصلة ، بل هى الحضارة الوحيدة المتربعة على عرش العالم القديم بقاراته الثلاثة .

ويعترف بذلك عدد كبير من مفكرى الغرب ومنهم « آدم متز » ، « غوستاف لوبون » ، « أرنولد توينبى » ، « برناد شو » ، « سيديو » ، « زيغرد هونكه » وغيرهم من

العلماء المنصفين والمعترفين بفضل العرب والمسلمين على الحضارة العالمية وخاصة الحضارة الأوربية .

ذلك أن العرب والمسلمين كان لهم دورهم الهام والفعال فى دفع حركة التقدم الحضارى والعلمى والفكرى فى العالم إذ أنهم ساهموا مساهمة لا ينكرها أحد فى إثراء المعارف الانسانية سواء أكان ذلك فى الأدب والفلسفة والتاريخ والجغرافيا والفلك والطبيعة والكيمياء والاحياء والرياضة والعلوم والنبات والحيوان والطب والصيدلة وعلم البيطرة ، والعمارة والهندسة والموسيقى وفى كل المعارف الانسانية التى كانت معروفة فى ذلك الوقت ، ولقد قام حكام البلاد الأوربية ، ملوكها وأمرائها ووزرائها بعد أن تبينوا ما وصل إليه العالم العربى الاسلامى من تقدم علمى قاموا بإرسال البعثات الطلابية إلى شتى أنحاء العالم الاسلامى وخاصة تلك الأقطار القريبة منهم (الأندلس وصقلية) وقد تتلمذ هؤلاء الطلاب الذين جاءوا من شتى البقاع الأوربية كفرنسا وإيطاليا وألمانيا انجلترا وغيرها من البلاد الأوربية الأخرى على أيدى كبار العلماء والفلاسفة المسلمين الذين نبغوا فى كل فن من فنون المعرفة الانسانية ، وذلك لأن الحضارة الاسلامية العربية كان قد تم تطويرها نحو المستوى الرائع الذى بلغته ، وقد بلغت الحضارة الاسلامية قمة مجدها الذهبى فى عهد الخلافة العباسية فى عهد الخليفة المأمون وهارون الرشيد وكذلك فى عهد حكام بنى أمية فى الأندلس وذلك فى أواسط القرن الثالث الهجرى ، التاسع الميلادى ويعود الفضل للعرب فيما وصلت إليه حضارة الغرب إذ أن المسلمون كانوا قد وصلوا إلى مستوى حضارى وثقافى وعلمى مرموق فيما بين القرنين الثالث الهجرى والسابع الهجرى ، التاسع والثانى عشر الميلادى ، حيث كانت الجامعات الاسلامية فى الأندلس يفد إليها طلاب العلم من شتى أقطار الغرب ، وكان المسلمون هم الذين نقلوا إلى أوربا طريقة البحث العلمى والذين ساروا على دربه فيما بعد .

وكانت حركة الترجمة التى قامت بها الدول الأوربية فى الأندلس وصقلية ، حيث جمعوا الآلاف من المخطوطات العربية الاسلامية فى شتى العلوم والمعارف وقاموا بترجمتها من العربية إلى العبرية ثم من العبرية إلى اللاتينية ثم إلى اللغات المحلية ، الانجليزية والفرنسية والألمانية) هى الأساس الأول الذى قامت عليه

حضارتهم إذ أنهم أخذوا ينهلون من هذه المخطوطات كل المعرفة التى توصل إليها العقل العربى الاسلامى .

إن الآلاف من المخطوطات العربية الإسلامية التى تزخر بها مكتبات دول الغرب فى الوقت الحالى سواء فى الفاتيكان أو فى روما وهولندا وأسبانيا وفرنسا وانجلترا وغيرها من دول أوربا الغربية والشرقية لخير دليل على اعتماد الحضارة الأوربية فى نهضتها التى قامت فى عصر النهضة على الحضارة العربية الإسلامية، إذ عن طريق هذه الذخائر العلمية ، استطاعت أوربا أن تكمل السير فى الطريق الذى سار فيه المسلمون دون أن تبدأ من حيث بدأ المسلمون ، ذلك لأنه لولا هذا التراث والتقدم العلمى الإسلامى لبدأ الأوربيون من أول الطريق إذ أن ماقدمه إليهم المسلمون وفر عليهم قروناً عدة فى البحث والدراسة .

وعلى أية حال فإن دورنا نحن العرب والمسلمون فى بناء الحضارة الحديثة التى تتطور كل يوم تطوراً سريعاً فى مجال الاختراعات التى تفوق الوصف والتى أبدعها وابتدعها العقل البشرى لا يستطيع أن ينكره أحد ، ذلك لأن الذى منحته أستاذة الحضارات ـ الحضارة العربية الإسلامية ـ طوال ثلاثة قرون كان هو السبب المباشر لتلك الحضارة التى نعيشها اليوم .

وأنه لولا الانتكاسات التى مني بها العالم العربى والإسلامى على أيدى المغول والتتار والصليبيين والاستعمار الأوربى الحديث ،ولولا الخلافات المذهبية والفتن والدسائس والأهواء الشخصية ، لما تأخر ركب الحضارة العربية الإسلامية ، كل هذا التأخر قد أفسح الطريق لحضارات أخرى لتتولى قيادة البشرية ولكان العرب والمسلمون بحق هم قادة ذلك التقدم العلمى الهائل الذى تشهده البشرية اليوم مع إختفاء الجانب الروحى من ذلك التقدم العلمى .

المراجع العربية والمعربة

١ — ابن الأثير ، أحمد بن على : الكامل فى التاريخ ، القاهرة ، المطبعة المنيرية، ١٩٣٣ م .

٢ — ابن تغرى بردى ، أبو المحاسن يوسف : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، مصر دار الكتب ، د . ت .

٣ — ابن حوقل ، أبو القاسم النصيبى صورة الأرض ، ليدن ، ١٩٣٨ م .

٤ — ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد : المقدمة ، بيروت ، ١٩٦٧ م .

٥ — ابن طباطبا ، محمد بن على السطقطقى : الفخرى فى الآداب السلطانية ، القاهرة ، ١٢١٩ م .

٦ — أبو الفدا ، إسماعيل بن على : تقويم البلدان ، ليدن ، ١٨٤٠ م .

٧ — أبو الفدا ، إسماعيل بن على : المختصر فى أخبار البشر ، تاريخ أبو الفدا ، بيروت ، دار المعرفة ، د.ت .

٨ — أبو زيد شلبى: تاريخ الحضارة الإسلامية، القاهرة ، مكتبة وهبة، ١٩٦٤م

٩ — أحمد أمين : فجر الإسلام ، القاهرة ١٩٣٨ م .

١٠ — أحمد أمين : ضحى الإسلام ، القاهرة ١٩٣٥ م .

١١ — السيوطى ، عبد الرحمن بن أبى بكر : غزوات قبرص ورودس ، فنيسيا ، ١٨٨٤ م .

١٢ — الطبرى، أبو جعفر محمد بن جرير : تاريخ الأمم والملوك، القاهرة ١٣٥٧ هـ

١٣ — عمر فروخ : العرب والإسلام فى الحوض الغربى من البحر الأبيض ، بيروت ١٣٧٨ هـ .

١٤ — طرخان ، إبراهيم على : المسلمون فى أوربا فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٦ م .

١٥ — البكرى ، أبو عبيد الأندلسى ، المغرب فى ذكر بلاد أفريقيا ، والمغرب، الجزائر ١٩١١ م .

١٦ — ابن سعيد ، أبو الحسن بن موسى الأندلسى : المغرب فى حلى المغرب ، القاهرة ١٩٥٣ م .

١٧ — السلاوى ، أحمد بن ناصر : الاستقصام فى أخبار المغرب الأقصى ، القاهرة ، ١٩١٨ م .

١٨ — القلقشندى ، أحمد بن على : صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ، القاهرة ، ١٩١٨ م .

١٩ — جلال مظهر : حضارة الإسلام وأثرها فى الترقى العالمى ، القاهرة ، مكتبة الخانجى ١٩٧٤ م .

٢٠ — جلال مظهر : الحضارة الإسلامية أساس التقـــدم العلمى الحديث ، القاهرة ، د.ت .

٢١ — جيب ، هاملتون : دراسات فى حضارة الإسلام ، ترجمة إحسان عباس ، بيروت ، دار العلم ١٩٦٤ م .

٢٢ — الجرارى ، عبد الله بن عباس : تقدم العرب فى العـــلوم والصناعات وأستاذيتهم لأوربا ، القاهرة ١٩٦١ م .

٢٣ — أنور الرفاعى : الانسان العربى والحضارة ، بيروت ، دار الفكر ، ١٩٧٠ م .

٢٤ — أنور الجندى : العالم الاسلامى والاستعمار السياسى والاجتماعى والثقافى القاهرة ، دار المعرفة ١٩٧٠ م .

٢٥ — محمود شاكر : المسلمون فى قبرص ، جده ، الدار السعودية ، ١٩٧٤ م

٢٦ — المدنى ، أحمد توفيق : المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا ، الجزائر ١٩٥٦ م .

٢٧ — ابن عبد الحكم ، عبد الرحمن بن عبد الله : فتوح مصر وأخبارها ، القاهرة ١٩٦١م

٢٨ — البلاذرى ، أحمد بن يحيى بن جابر : فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٣٩م .

٢٩ — أرشيبالد ، لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط، ترجمة أحمد عيسى ، القاهرة ١٩٦٠ م .

٣٠ — أمارى ، ميخائيل : المكتبة العربية الصقلية ، ١٨٨٧ م

٣١ — الصبحى ، محمد إبراهيم : أثر العرب فى الحضارة الأوربية، القاهرة ١٩٦٨م

٣٢ — الحوى ، محمد ياسين : تاريخ الأسطول العربى ، دمشق ١٩٤٥ م .

٣٣ — الخربوطلى، على حسنى : الاسلام فى حوض البحر المتوسط، بيروت ١٩٧٠

٣٤ — بارتولد ، ف : تاريخ الحضارة الاسلامية ، ترجمة طاهر حمزة ، القاهرة ١٩٥٨ م .

٣٥ — بروفسال ، ليفى : حضارة العرب فى الأندلس ، ترجمة ذوفان قرقوط ، بيروت د.ت.

٣٦ — بروكلمان ، كارل : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيه فارس ، منير البعلبكى ، بيروت ١٩٦٥ م .

٣٧ — حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ، القاهرة ١٩٣٥ م.

٣٨ — حماد حسن السيد : الحضارة العربية ، القاهرة ١٩٦٧ م .

٣٩ — حيدر بامات : دور المسلمين فى بناء المدينة الغربية ، جنيف د.ت .

٤٠ — حسين مؤنس : فجر الأندلس ، القاهرة ١٩٥٩ م .

٤١ — راشد . زينب عصمت : كريت تحت الحكم المصرى ، القاهرة ١٩٦٤ م

٤٢ — زكريا هاشم زكريا : فضل الحضارة الإسلامية والعربية على العالم ، القاهرة ١٩٧٠ م .

٤٣ — سالم السيد عبد العزيز : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، بيروت، ١٩٦٢ م .

٤٤ — سرور ، محمد جمال الدين : تاريخ الحضارة الإسلامية، القاهرة ١٩٧٣ م

٤٥ — سهير القلماوى وآخرون : أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية ، القاهرة ، ١٩٧١ م .

٤٦ — شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ، القاهرة ١٣٥٢ هـ .

٤٧ — طوقان قدرى حافظ : تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك ، القاهرة ، ١٩٦٣ م .

٤٨ — العقاد ، عباس محمود : أثر العرب فى الحضـــارة الأوربية ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٨ م .

٤٩ — عاشور ، سعيد عبد الفتاح : فضل العرب على الحضارة الأوربية ، القاهرة ١٩٥٧ م .

٥٠ — عبد الرازق نوفل : المسلمون والعلم الحديث ، القاهرة ١٩٦٠ م .

٥١ — عبد الحميد العبادى : المجمل فى تاريخ الأندلس القاهرة، دار القلم ١٩٦٤م

٥٢ — عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية، القاهرة الأنجلو المصرية ١٩٦٠م

٥٣ — محمد كرد على : الإسلام والحضارة العربية ، القاهرة ١٩٦١ م .

٥٤ — عنان ، محمد عبد الله : مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام، القاهرة ١٩٥٢م

٥٥ — غوستاف لوبون : حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة، ١٩٥٦م

٥٦ — فيليب حتى ، وآخرون : تاريخ العرب ، بيروت ، ١٩٦١ م .

٥٧ — لطفى عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا ، القاهرة ، ١٩٥٨ م .

٥٨ — متز ، وآدم : الحضارة العربية ، ترجمـــة محمد عبد الهادى أبو ريدة ، القاهرة ١٩٥٧ م .

٥٩ — مصطفى الرافعى : حضارة العرب فى العصور الإسلامية الزاهرة ، بيروت ١٩٦٠ م

٦٠ — ناجى معروف : أصالة الحضارة العربية ، بغداد ١٩٦٩ م .

٦١ — هازارد ، هارس : أطلس التاريخ الإسلامى ، ترجمة محمد عوض محمد ، برتستون ١٩٥٤ م .

٦٢ — هونـكه ، زيغرد : شمس العرب تسطع على أوربا، ترجمة فاروق بيضون، كمال الدسوقى ، بيروت ١٩٦٤ م .

٦٣ — ياقوت الحموى : معجم البلدان ، القاهرة ١٩٠٦ م .

٦٤ — دائرة المعارف الإسلامية : ١٢ جزء ، القاهرة ١٩٦٣ م .

٦٥ — دائرة معارف البستانى : ١١ جزء ، بيروت ١٨٧٦ م
٦٦ — دائرة معارف القرن العشرين : محمد فريد وجـــدى ١٠ جزء ، بيروت ١٩٧١ م .
٦٧ — حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا ، القاهرة، ١٩٥٨م
٦٨ — حسن أحمد محمود : تاريخ المغرب العربى الاسلامى القاهر ، ١٩٦٨ م .
٦٩ — محمد عبد المنعم خفاجى: الإسلام والحضارة الإنسانية، بيروت ١٩٧٣م
٧٠ — الاصطخرى : المسالك والممالك ، القاهرة ١٩٦١ م
٧١ — نفيسى أحمد : جهود المسلمين فى الجغرافيا ١٩٦٠ م .
٧٢ — الذهبى ، محمد عبد الله : تاريخ الإسلام ، القاهرة د. ت.
٧٣ — صابر محمد دياب : سياسة الدولة الاسلامية فى حوض البحر المتوسط ، القاهرة ١٩٧٣ م .
٧٤ — سعاد ماهر: البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية، القاهرة، ١٩٦٧م
٧٥ — إبراهيم أحمد العمرى : الأمويين والبيزنطيون والبحر المتوسط بحيرة إسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٣ م .
٧٦ — إبراهيم أحمد العمرى : الأساطيل العربية فى البحر المتوسط : القاهرة ١٩٥٧ م .
٧٧ — إحسان عباس : العرب فى صقلية ، القاهرة ١٩٥٩ م .
٧٨ — فازيليف .ا .ا : العرب والروم ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ، القاهرة ١٩٥٠ م .

المراجع الأجنبية

1 — Cont well, Smith : Islam in the Modern history, Newyork 1952.

2 — Dencel, A N : Islam, Europe and Empire, London, 1968.

3 — Halt, P.M. ed, and others : The Cambridge history of Islam, 2 Vol., Combridge Univeristy, 1970

4 — Hughes, A : Dictionary of Islam. London, 1885.

5 — Glubb, John : The empire of the Arabs. London, 1963.

6 — Khaddury, M. : The Nature of Moslem States. London, 1945.

7 — Stewart, D. The Arab warld. London, 1968.

8 — Lewis, Barnard. : The Arab in history, London, 1950.

9 — Montell, V. : Le Monde Musulman, Geneve, 1963.

10 — Brooke, Z N. : A History of Europe. London, 1928.

11 — Davis. K H : A History of Early Mediaeval Europe London, 1966.

12 — Chew, M. A. Latham, C : Europe in the Middle Ages, London, 1936.

13 — Encyc Laredia Brihannica : 23 Vol, London, 1960.

14 — Encyc. of Islam.

15 — Eyre, E. : European civilization, its origins, develapment, oxford, 1935.

16 — Freeman, E. A. : Western Europe in Eight Century London 1904.

17 — Freeman, E.A. : Western Europe in Eight Century, London. 1904.

18 — Hollam, H. : View of the State of Europe during the Middle Ages. London, 1914.

19 — Hunt, W. : History of Italy, London, 1878.

20 — Waera, C. : Mediaeval Sicity, London, 1910.